سوريتنا
السنة الثانية
العدد (53)
2012 / 9 / 23
سن القلم من جديد
الجولان وفلسطين..
في قلب
سوريتنا
سوريتنا في عامها الأول
سوريتنا
علم في حضرة الحرية
سوريتنا
غلاف العدد
تصميم الفنانة يارا النجم

العفو الدولية: قوات النظام تستهدف المدنيين بسوريا

الهجمات شملت 36 بلدة وقرية في إدلب وجبل الزاوية وشمال حماه

أعلنت منظمة العفو الدولية في بيان لها، اليوم الأربعاء، أن المدنيين ومن بينهم عدد كبير من الأطفال، هم الضحايا الرئيسيون للهجمات التي يشنها جيش النظام السوري بشكل متواصل وأعمى.

وقالت المنظمة في تقريرها الحديث إن مشاهدات باحثيها داخل سوريا خلال النصف الأول من سبتمبر/أيلول رصدت هجمات أسفرت عن مقتل 166 شخصاً، بينهم 48 طفلاً و20 امرأة، كما جرح المئات جراءها.

وأوضح البيان أن الهجمات شملت 36 بلدة وقرية في إدلب وجبل الزاوية وشمال حماه.

وتقول المنظمة "توافرت لديها أدلة موثقة بشأن نهج اتبعته القوات السورية خلال الأسابيع الأخيرة في المناطق التي انسحبت منها أمام قوات المعارضة، فهي تقصفها الآن بشكل مستمر، ما يؤدي إلى عواقب كارثية على السكان المدنيين".

وقالت مستشارة الأزمات في منظمة العفو الدولية دوناتلا روفيرا، التي عادت لتوها من شمالي سوريا، إن "القوات النظامية تقصف بشكل منظم المدنيين والقرى بالأسلحة الثقيلة التي لا يمكن استعمالها لاستهداف أماكن محددة مع العلم أن ضحايا مثل هذه الاعتداءات العمياء هم تقريباً ودائماً المدنيون".

وأضافت "لا يجوز أبداً استعمال مثل هذه الأسلحة ضد المناطق السكنية". وكانت روفيرا قد توجهت مؤخراً إلى شمال سوريا.

وأشار بيان المنظمة إلى أنه "خلال الأسابيع الماضية وفي المناطق التي دحرت فيها قوات المعارضة القوات النظامية حصل قصف أعمى على الأراضي التي انسحب منها الجيش النظامي مع نتائج تدميرية بالنسبة للسكان".

وأوضح البيان أن "هجمات بالقرب من المستشفيات بعيد تدفق الجرحى، أو على تجمع أشخاص كانوا يشترون الخبز، تشير إلى أن مثل هذه الاعتداءات تستهدف بشكل عشوائي التجمعات الكبرى للمدنيين"، متحدثاً عن "انتهاك خطير للقانون الإنساني الدولي" كما تحدث عن "جريمة حرب".

وهكذا، في 22 آب/أغسطس "حصل قصف بالقرب من محل سمانة وأدى إلى مقتل 13 مدنياً" في كفر نبل بمنطقة إدلب، حسب البيان.

السوريون يبحثون عن أحبتهم المفقودين على «فيسبوك»

ألفا شخص على الأقل فقدوا في مناطق العنف بينهم أطفال ونساء وشيوخ.

لم يجد السوريون سوى صفحات الإنترنت للبحث عن المئات من أحبتهم الذين فقدوا في ظروف غامضة منذ تفجر الثورة، بحسب تقرير لقناة «العربية»، اليوم الخميس.

وفي هذا السياق، أنشأ عدد من الناشطين صفحة خاصة على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» لعرض صور المفقودين في محاولة لمساعدة ذويهم على العثور عليهم.

ومع مرور أيام المواجهات المسلحة في سوريا، تتكشف مظاهر جديدة من عذابات المواطنين السوريين، إلى جانب ارتفاع معدلات القتلى الذين يسقطون كل يوم، يوازي ذلك الموت، موت آخر بطيء يحمل عنوان «مفقود»، تتقطع له أوصال عائلات في انتظار الأمل في عودة أحبتهم سالمين.

وتعرض صفحة على موقع «فيسبوك»، تحمل عنوان «مفقودين»، صوراً لأطفال ونساء وشبان وشيوخ فقدوا لأسباب مجهولة، منهم من خرج من المنزل بغرض شراء حاجة، ومنهم من توجه إلى عمله ولم يعد، لكن الجميع يشترك في نهاية مأساوية، بأنهم وقعوا ضحية الخطف، سواء لخصومة شخصية أو أسباب أمنية أو طلباً لفدية، وأحياناً أخرى دون أن يكون هناك سبب.

ووفقاً للمرصد السوري لحقوق الإنسان، تعرض ما يتراوح بين ألفين و3 آلاف شخص للخطف في مختلف المناطق السورية منذ اندلاع الاحتجاجات ضد نظام الرئيس بشار الأسد قبل نحو 18 شهراً، تتركز معظمها في المناطق التي تشهد أحداث عنف.

لا أحد يعرف مصير هؤلاء، وما الجهة التي اختطفتهم ولصالح من، لكن يبقى السؤال الأهم في سلم أولويات عائلاتهم وأحبائهم: هل مازالوا أحياء أم غيبهم الموت كما غاب الأمن في بلد تعصف فيه المواجهات؟

وفي انتظار بصيص أمل، يعرض موقع التواصل الاجتماعي صوراً لعدد من المفقودين، مقرونة بمعلومات بسيطة، منها تاريخ اختفائهم وأرقام هواتف عائلاتهم.

وفي انتظار رنين الهاتف، يبقى الانتظار صعباً في مواجهة الخبر القادم، فإما الموت أو طلب فدية.

الجوع يهدد السوريين جراء القصف والحصار

حذرت منظمات دولية وهيئات إغاثية من أن الهجمات العسكرية والحصار الذي تتعرض له عدة بلدات سورية تحرم عشرات الآلاف من السكان من المواد الغذائية والاحتياجات الأساسية، فضلا عن توثيق عدة ناشطين استهداف النظام خطوط إمداد وأفرانا.

وتعاني آلاف العائلات في مدينة حلب تحديدا من نقص حاد في المواد الغذائية نتيجة الحصار المفروض عليها من الجيش النظامي منذ أكثر من شهرين، وهو ما دفع عشرات المتطوعين إلى إنشاء ما بات يعرف بـ"المطابخ الميدانية" التي تؤمن للعائلات والمقاتلين وجبات غذائية.

وكانت اللجنة الدولية للصليب الأحمر دعت روسيا إلى الضغط على الحكومة السورية للسماح للصليب الأحمر والمنظمات الإنسانية الأخرى بالعمل بحرية أكبر داخل البلاد.

وقالت اللجنة إن اهتمام الصليب الأحمر منصبّ على كيفية توسيع مجال الإغاثة الإنسانية في سوريا.

ومن جانبه وجه برنامج الأغذية العالمي التابع للأمم المتحدة الخميس نداء لتسهيل وصوله بشكل أكبر إلى مناطق النزاع في سوريا، موضحا أنه غير قادر على تقييم الحاجات في المناطق التي تشهد معارك عنيفة.

مليونا نازح

وقالت المتحدثة باسم البرنامج عبير عطيفة إنها غير قادرة على تقييم الحاجات في المناطق التي تشهد معارك عنيفة لأن المساعدات الإنسانية لا تصل إليها، ولفتت إلى أن عدد النازحين السوريين اقترب من مليونين.

وفي سياق متصل، ذكر أمس تقرير للمفوضية العليا لشؤون اللاجئين في جنيف أن السوريين المشردين في الداخل يحتاجون قدرا متزايدا من المساعدة النفسية، إضافة إلى الأغذية والمال.

وأوضح أن عدد اللاجئين السوريين في الدول المجاورة يزداد بمعدل نحو 2900 لاجئ يومياً.

وأضاف أن 27800 سوري هربوا إلى الأردن ولبنان والعراق وتركيا في نصف الأسبوع الجاري، مقارنة بنحو 253 ألف لاجئ سوري تم حصرهم حتى العاشر من الجاري.

كما أعلنت المفوضية عبور نحو أربعة آلاف لاجئ سوري إلى الأراضي الأردنية خلال الأسبوع الماضي عبر المنافذ غير الشرعية، معظمهم من محافظة درعا.

شوارع سوريا تخلد أسماء شهداء الثورة

في محاولة رمزية لتخليد ذكرى بعض القتلى السوريين نظمت تنسيقية الحسكة الموحدة، حملة لتغيير أسماء عدد من الشوارع في المحافظة، لتحمل أسماء أبرز أبطال الثورة السورية، الذين قضوا في مسيرتهم المطالبة بالتغيير والإصلاح في سوريا.

وجاءت هذه الخطوة في محاولة رمزية لتخليد ذكرى بعض قتلى الثورة السورية، حيث نظمت تنسيقية الحسكة الموحدة حملة لتغيير بعض أسماء الشوارع والميادين في المحافظة، لتحمل أسماء عدد من رموز الثورة الذين ضحوا بأنفسهم من أجل نيل الحرية والكرامة.

فبعد طمس الأسماء القديمة للشوارع خطت على ذات اللوحات القديمة الأسماء الجديدة للشوارع، ليحمل أحدها اسم الطفل حمزة الخطيب، وآخر اسم المعارض مشعل تمو، كما أطلق على أحد الميادين اسم "آزادي" الذي يعني الحرية باللغة الكردية في المدينة، تيمناً بجمعة "آزادي" التي انطلقت أوائل الثورة السورية.

ونفذت تنسيقية الحسكة حملتها وغيرت أسماء العديد من الشوارع في المحافظة، ربما تماشيا مع الإرادة الشعبية الراغبة في إحداث التغيير المنشود، بجهودهم الرمزية وبما يتوافر لديهم من إمكانات.

أخوان يقاتلان إلى جانب قوات النظام.. بينما الثالث مع الثوار

معاناة عائلة سورية يقاتل أبناؤها على الجبهتين

ترفع أم ياسر منديلها الوردي لتمسح دموعا تنهمر بلا انقطاع، مستعيدة في ذهنها صور أولادها الثلاثة الذين يقاتل اثنان منهم إلى جانب القوات النظامية، بينما يقاتل الثالث إلى جانب المعارضة المسلحة.

ويقول زوجها تيسير إنه لديهما «ابن في الجيش النظامي، وآخر في الجيش السوري الحر». ولم ير تيسير ابنه الثالث محمد (26 سنة)، الطالب الذي كان يدرس الأدب العربي قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية في درعا (جنوب) ثم في محافظة دير الزور (شرق)، منذ ما بعد بدء الحركة الاحتجاجية ضد النظام السوري في مارس (آذار) 2011 بأسابيع قليلة.

وأتم تيسير وجميع رجال هذه الأسرة واجبهم الوطني، إلا أنه منذ أن بدأ النزاع المسلح، وجد الكثير من المجندين أنفسهم محاصرين، خاصة أن مدة هذه الخدمة التي تمتد عادة 18 شهرا يمكن أن تطول إلى أجل غير مسمى.

وأوضح تيسير أن ابنه محمد، الذي سحبت منه السلطات هويته الشخصية، اضطر للبقاء في الجيش لأنه «لو انشق قسيموت»، مشيرا إلى وجود «مئات الحواجز على الطريق»، حسب وكالة الصحافة الفرنسية. وحيال هذا الوضع، رحلت زوجة محمد بعد أن انتابها اليأس إثر إجهاضها الناجم عن التوتر، وعادت إلى أسرتها.

ونادرا ما تتلقى هذه العائلة أنباء عن ولديها لصعوبة الاتصالات الهاتفية في هذه القرية الواقعة شمال حلب. وتعود آخر مكالمة لشهر ونصف الشهر إلا أن الخوف من التنصت أجبر محمد على الكلام مع والده فقط حول الأمطار والطقس فيما انهار باكيا عندما تكلم مع والدته التي تأثرت أيضا بمحادثته.

وتخشى أم ياسر الأخبار السيئة، وتتخيل مقتل ابنها في كمين نصبه المقاتلون المناهضون للنظام، أو تعذيبه حتى الموت على أيدي الموالين للنظام لو حاول الانشقاق.

كما يخنقها القلق كذلك عندما تفكر بابنها الآخر، أنيس، وهو طالب (23 عاما) انضم إلى الجيش الحر قبل ثلاثة أشهر، وتقول: «أخشى حقا أن يقتلا، فكلاهما على الخط الأمامي». وتطلق أم ياسر تنهيدة عميقة قائلة: «إنه أمر صعب».

ويرى تيسير أن قرار ولده أنيس هو النتيجة المنطقية «للمجازر التي ترتكب بحق الشعب السوري» ويضيف أن أنيس قرر «الدفاع عن أرضنا وشرفنا قبل أن يأتوا لقتلنا».

أوجاع وطن

أطفال يقارعون الموت

كي لا نجد أنفسنا في المستقبل أمام جيل معطوب

■ آكاسيا العاصي

في أول يوم بالعام الدراسي جلست غادة مقابل عشرين تلميذاً بالصف الخامس، كانت قد تطوعت لتعليمهم. حاولت قدر الإمكان تخفيف وطأة الرعب المخيم على أجواء مدرستهم التي اخترقت جدرانها القذائف وأحدثت فجوات كبيرة بالجدران. مازحت تلاميذها الصغار باعتبار فجوات الموت تلك فتحات للتهوية، تسمح بالإطلال على الفناء الخارجي.

كل شيء في المدرسة بدا خارجاً للتو من معركة شرسة مع الموت، الذي ما يزال جاثماً بثقله الهائل على صدر البلدة الصغيرة، ويترصد حركة أهلها في كل مكان حتى في فراش النوم. عام كامل مضى والموت لم يمل من حصادهم، بينما يتناهش أعصابهم القلق والسأم. أخيرا وجدوا أن السبيل الوحيد للتغلب على هذا الموت العبثي تجاهل وجوده وتحديه بالإقبال على الحياة ومحاولة إطلاق سراح يومياتهم المعتقلة خلف جدرانه. وهكذا عادوا إلى المدرسة ومعهم مدرسون ومدرسات شباب هم أيضا ملوا الإقامة الجبرية في بيوت المناطق المحاصرة بالقصف والقنص، استودعوا الله أرواحهم، وحملوا الكتب والأقلام والدفاتر وتوجهوا إلى ما تبقى من مدرستهم في إحدى مناطق ريف حمص الملتهب، هناك حيث يقضي ما تبقى من الأهالي أيامهم تحت حصار خانق تنقطع خلاله وفي معظم الأوقات المياه والكهرباء والاتصالات، لتمر اللحظات بطيئة في تعداد القذائف المنهمرة على مدار الساعة فوق المنازل، وتمييز أصوات الهاون من البراميل، وتقدير موقع سقوطها وحجم أضرارها. لحظات تحيل حياتهم إلى سريالية مرعبة، يتغلبون عليها بالصلاة والدعاء للرب الواحد القهار، تُعمق إيمانهم بان لا احد «يموت ناقص عمر» وان «كل شيء بيد الله». هذه القناعة دفعت الأهالي والأولاد والمعلمين للعودة إلى المدرسة التي سبق وقاطعوها العام الماضي، بعد احتلالها من قبل قناصة النظام، مع أنها هذا العام ورغم تحريرها ما تزال تحت مرمى نيران قوات الجيش النظامي. ويحصل دائما خلال الحصة الدراسية أن تسمع أصوات القصف وإطلاق النار، كما يحصل أيضا أن يستمر الدرس دون انقطاع، وكأن شيئا لم يكن، اللهم إلا إذا كانت الأصوات قريبة جدا، أو تستهدف المدرسة مباشرة، حينها يهرع الجميع إلى القبو وسط صراخ وعويل الصغار، دقائق قد تمتد لتصبح ساعات خوف متواصل، إلى أن يهدأ كل شيء، فيسارع الجميع إلى منازلهم، ليعودوا في اليوم التالي إلى يوم جديد من مقارعة الرعب.

غادة تحدثت عن أسبوعها الأول بالمدرسة بتلقائية وببساطة يشوبها الضحك والسخرية حيناً والبكاء المر حيناً آخر، خاصة حين ترد على ذكر أوضاع التلاميذ، فما من واحد منهم لم يفقد شخصا على الأقل من عائلته أم أو أب أو أخ أو عم، ومن لم يفقد فإن له قريباً أو أخاً في الجيش الحر أو أباً في المعتقل، معظمهم مثقل بالحزن والألم بالإضافة لعاهة جسدية، أو ندب نتيجة إصابة بشظية أو طلق ناري. غادة التي تحاول تسليتهم بأسئلة خارجة عن السياق لتبدد حالة السكون في الصف، تجد نفسها متورطة في سماع قصص مأساوية لا تقل عن قصصها هي وعائلتها. ومع ذلك تصر على تجاوز الألم والحزن بالتفكير بجدول زمني مكثف لإنهاء المنهاج قبل الوقت المحدد، لان الزمن الدراسي في المناطق المحاصرة اقصر بكثير من نظيره في المناطق الهادئة نسبياً، فثمة أيام لا يمكن فيها الوصول للمدرسة، وأيام أخرى لا تتجاوز مدة الدوام ساعة واحدة. عدا كل ذلك فإن الطلاب بعد انقطاع لأكثر من عام نسوا معلوماتهم السابقة، وباتوا بحاجة لجهد إضافي، يعيد تذكيرهم بما تعلموه سابقا قبل إعطائهم معلومات جديدة.

نعم هناك مشكلات كبيرة لا نعرف كيف نتغلب عليها، لكن لدينا الأمل والإرادة، لن ندع الأطفال يخسرون عاما دراسيا جديدا، ولن نحرمهم فرصة الاستمتاع بأجواء الدراسة والتعلم. ما قالته المدرسة الشابة غادة يضعنا أمام عدة مشكلات معقدة يعاني منها الأطفال في المناطق الساخنة، فالندوب النفسية التي يخلفها الحصار والقصف، باتت تحتاج لجهود أكبر من جهود الشباب والمعلمين في المجتمعات المحلية، إنها تستدعي توجيه نداءات استغاثة للمنظمات الدولية المعنية بالطفولة والتعليم والإغاثة وفي مقدمتها اليونيسيف للنظر في أوضاعهم والطلب من المجتمع الدولي التحرك بهدف إلزام النظام بتحييد المدارس عن دائرة الاستهداف، وحث المنظمات التعليمية والتربوية على وضع مناهج تراعي الوضع النفسي للتلاميذ في المناطق المنكوبة والمحاصرة، والعمل على تدريب المعلمين والمتطوعين كيفية تعليم الأطفال المتضررين نفسياً وجسدياً. ومن نافل القول أن توجيه النداءات من اجل طفولة سوريا مهمة نشطاء المعارضة في الخارج قبل الداخل، فلا يكفي أن نندب شهداءنا من الأطفال ليل نهار، بل التفكير بمشكلات الأطفال الأحياء الذين يعيشون تحت القصف، ووضع أفكار وبرامج لمساعدتهم، أو على الأقل دعوة المجتمع الدولي للحد من الكارثة التي تلم بأطفالنا، كي لا نجد أنفسنا في المستقبل أمام جيل مأزوم نفسياً ومخرب بالكامل.

بداية مضطربة للسنة المدرسية في سوريا بسبب العنف

أكثر من 2000 مدرسة تم تدميرها بشكل كامل والمئات غيرها تستخدم كأماكن إيواء للنازحين

بدأت السنة المدرسية رسمياً الأحد في سوريا، لكن في مدن عدة ومنها حلب لم تفتح أي مدرسة أبوابها بسبب الحرب التي يتواجه فيها جنود القوات النظامية مع مقاتلي المعارضة.

وأعلنت وسائل الإعلام الرسمية انطلاق السنة المدرسية لأكثر من خمسة ملايين تلميذ و385 ألف أستاذ وموظف.

ومع تدمير أكثر من 2000 مدرسة بشكل كامل أو تضررها جزئياً، واستخدام المئات غيرها كأماكن إيواء للنازحين، أكدت وزارة التربية اتخاذ كل الإجراءات لضمان سير العمل الجيد لمسار التعليم، بحسب وكالة الأنباء السورية الرسمية (سانا).

وأكد أحد العاملين في مستشفى في دمشق أنه أوصل ولديه إلى مدرستهما في مشروع دمر، ضاحية في غرب العاصمة، وكانت هناك زحمة هذا الصباح، والأولاد كانوا متحمسين لفكرة العودة إلى المدرسة في "دوحة الحرية" في وسط العاصمة، ورافق عدد كبير من الأهل ايضاً أبناءهم إلى روضة الاطفال هذه.

لكن في الأحياء الواقعة على أطراف العاصمة وفي ضواحيها والتي تحولت إلى أرض معركة حقيقية، بقي الأولاد في منازلهم.

وقال سائق سيارة أجرة مقيم في حي التضامن (جنوب دمشق) الذي يتعرض غالباً للقصف ويشهد اشتباكات بين القوات النظامية ومجموعات مقاتلة معارضة، انه لم يرسل ولديه إلى المدرسة لأن المدارس مقفلة في الحي.

وأكدت الناشطة ألكسيا أن مدارس أحياء التضامن والحجر الأسود بقيت مقفلة، وأن بعض المؤسسات في حي الميدان (وسط) فتحت أبوابها لكن غالبية العائلات اختارت عدم إرسال الأولاد لأسباب أمنية، في حين استخدم العديد من المدارس في الضاحية الجنوبية لدمشق كملاجئ للنازحين.

وقالت الكسيا "حاولنا التنسيق بشكل أفضل للسماح للأولاد بارتياد المدرسة وتوفير سقف فوق رؤوس النازحين في الوقت عينه في داريا جنوب غرب دمشق، حيث قتل أكثر من 500 شخص نهاية آب / اغسطس، بقيت أبواب المدارس مغلقة".

وأكد الناشط أبو كنان أن ذكرى المجازر حديثة جداً وغالبية السكان لم تفكر حتى بتسجيل أبنائها في المدارس، مشيراً إلى أن "غالبية المدارس في داريا دمرها الجيش".

وقال المسؤول في محافظة دمشق عمار كالو لوكالة فرانس برس، فتحت 900 مدرسة أبوابها في العاصمة، في حين اتخذ الهاربون من أعمال العنف ملجأ في 13 مدرسة دمشقية.

وتضم كل من هذه المدارس المستخدمة كملاجئ ما بين 300 إلى 500 شخص.

حمص لم تستقبل تلامذتها

وفي بلدة القصير في محافظة حمص (وسط) المحاصرة التي تتعرض للقصف منذ أشهر، بذل المعارضون كل ما في وسعهم للتمكن من بدء السنة المدرسية.

وقال الناشط حسين، في البلدة أعددنا أمكنة لتكون قاعات تدريس صغيرة في الأزقة لتفادي أن يضطر الأولاد للسير مسافات بعيدة، وأضاف "فكرتنا هي انه على رغم القصف، لا يجدر بالأولاد أن يغيبوا عن المدرسة".

وتابع "نظمنا أنفسنا ليتمكن الأساتذة من تعليم الدروس ونتمكن من الحصول على كتب من وزارة التربية. لكن من الواضح ان ثوار البلدة هم من سيضمنون حسن سير تعليم الأولاد".

وفي حلب، العاصمة الاقتصادية للبلاد، لم تستقبل أي مدرسة تلامذتها.

ويعتقد كثيرون من سكان المدينة أنها ستلقى المصير نفسه لمدينة حمص التي شهدت معارك عنيفة ودمرت في أجزاء كبيرة منها،، ولم تفتح أي مدرسة في حمص العام الماضي، كما بقيت المدارس الموجودة في مناطق الاشتباكات مقفلة، بينما فتحت تلك الواقعة في مناطق أكثر هدوء أبوابها، لكن أي تلميذ لم يحضر.

مدارس تحولت ملاجئ

وتعرضت مدارس كثيرة للتدمير بسبب القصف عندما اتخذها مقاتلو المعارضة مراكز لهم، بينما تحولت مدارس أخرى ملاجئ لإيواء النازحين.

وفي نهاية تموز/يوليو، أعلنت المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة أن الآلاف من المدنيين الذين لم يتمكنوا من مغادرة حلب يبحثون عن اللجوء إلى مدارس حلب وجامعاتها ومساجدها.

وقالت المتحدثة باسم اليونيسيف ماريكسي مركادو الجمعة من جنيف إن ضمان الدراسة للأولاد في سوريا سيكون "تحديا هائلا".

وأشارت إلى أن نحو 2000 مدرسة من أكثر من 22 ألفا في مختلف المناطق السورية، تعرضت لتدمير كامل أو جزئي، موضحة أن النازحين يستخدمون أكثر من 800 مدرسة كملاجئ.

وبعد أكثر من 18 شهراً على بدء الاحتجاجات المطالبة بسقوط نظام الرئيس بشار الأسد، يستمر العنف بوتيرة يومية في مناطق مختلفة من سوريا.

سوريون يروون معاناتهم في السجون

روى نصار، الجندي المنشق عن الجيش السوري، لوكالة فرانس برس معاناته على مدى شهرين ونصف الشهر في السجون السورية حيث شاهد بعض السجناء يقضون تحت التعذيب وتمت معاملته "كحيوان"، كما يقول، لسبب وحيد وهو أن مخططه للفرار كشف قبل وضعه قيد التنفيذ.

وتمكن الشاب البالغ من العمر 27 سنة من الخروج من الاعتقال بعد سيطرة المقاتلين المعارضين على سجن ثكنة هنانو في مدينة حلب خلال الشهر الجاري، بعد أن تعرض لتعذيب يومي وسط القذارة والحر داخل السجن.

ويقول "كنا 14 (سجينا) في الزنزانة حيث كنت موجودا، أصيب بعضهم بالمرض وعانى الآخرون طفحا جلديا لم نر مثله من قبل".

ويضيف الشاب ذو اللحية الصهباء المشذبة بعناية "توفي البعض تحت التعذيب، وعاد آخرون إلى الزنزانة والكدمات تغطي أجسادهم. كانت جلسات التعذيب تبدأ الساعة 11 ليلا وتنتهي الرابعة فجرا".

ووافق نصار على التحدث إلى وكالة فرانس برس في منزل في إحدى قرى محافظة حلب (شمال) حيث لا زالت تدور مواجهات بين المقاتلين المعارضين وجنود القوات النظامية، إلا انه رفض إعطاء اسم عائلته خوفا من تعرض أقاربه الموجودين في مسقط رأسه دمشق، لأعمال انتقام.

ولا يستطيع نصار ملاقاة عائلته بسبب الحواجز العسكرية التي تنتشر عبر البلاد التي تشهد مواجهات منذ أكثر من 18 شهرا.

ومثل نصار، اعتقل طلال (21 سنة) المتحدر أيضا من دمشق، لدى محاولته الهرب من الثكنة حيث كان يخدم. ونقل إلى اقرب مطار عسكري، ومنه بالمروحية إلى ثكنة هنانو حيث أمضى 17 يوما.

كان طلال يفكر منذ وقت طويل بالانشقاق عن الجيش النظامي، لكن العمليات التي شارك فيها في محافظة حلب سرعت في اتخاذه قرارا نهائيا.

ويقول الشاب المرتدي ملابس رياضية زرقاء وبيضاء إن "الجيش (النظامي) أحرق منازل ودمر قرية بكاملها. في هذه اللحظة، قلت لنفسي لا يمكنني البقاء يوما إضافيا. كنت وباقي الجنود نتحادث بهذا الأمر طويلا، واعتبرنا أن بقاءنا يعني أننا متواطئون مع النظام".

ويوضح أنه لم يكن يحق للجنود مشاهدة التلفزيون أو استخدام الهاتف الجوال، كما لم يمنح طوال عام كامل مأذونية لرؤية عائلته. ويقول "ممنوع أن يكون لأحد وجهة نظر مختلفة عن النظام".

ومنذ بدء التظاهرات السلمية المطالبة بسقوط الرئيس السوري بشار الأسد والتي تحولت نزاعا مسلحا مع استخدام العنف في قمعها، يتهم النظام "جماعات إرهابية مسلحة" بنشر الفوضى في سورية.

لكن هذا الخطاب لم يقنع عيسى، الجندي الذي انشق عن الجيش لأن أقوال الضباط المسؤولين عنه لم تكن تتلاءم مع ما يجري على الأرض.

ويقول عيسى "كانوا يتحدثون إلينا عن إرهابيين، لكننا كنا نرى أطفالا في مواجهتنا. في بداية الثورة، أرسلونا لضرب المتظاهرين".

ولم يتمكن عيسى المتحدر من دير الزور (شرق) من التحدث إلى عائلته منذ اصبح حرا بعد 5 اشهر في الاحتجاز، لكنه وافق على رواية قصته أملا بأن يعرف أهله بذلك أنه على قيد الحياة.

وخرج المنشقون الثلاثة إلى الحرية في السابع من سبتمبر الجاري، يوم هاجم مئات من المقاتلين المعارضين ثكنة هنانو في شرق حلب التي تعتبر إستراتيجية نظرا إلى ترسانتها العسكرية المهمة، ما أدى إلى تحرير 350 سجينا.

معاناة مزدوجة للاجئات سوريا ..

حرب تمزق الوطن وعروض زواج شبيهة بالإكراه

معاناة اللاجئات السوريات مزدوجة.. من الحرب الدائرة في بلدهن، ومن الضغوط التي يعانين منها في بلاد النزوح، عنوانها السعي إلى استغلال وضعهن في مشاريع زواج شبيهة بالإكراه. الصورة لحملة "لاجئات.. لا سبايا".

معاناة نساء سوريا من الحرب الدائرة في بلدهن مضاعفة، وحتى النازحات منهن اللواتي أجبرن على مغادرة الوطن إلى الخارج وجدن أنفسهن أمام مواجهة أخرى، عنوانها السعي إلى استغلال وضعهن في مشاريع زواج يشبه الإكراه.

موضوع استغلال السوريات اللاجئات في بلدان النزوح لم يعد سرا، بعد أن تناقلته وسائل إعلام عربية ودولية، وصار موضوع فتاوى "الفقهاء" داخل المساجد وعلى الشبكة، وشبهه حقوقيون بما وقع لنساء شهدت حروبا وأزمات، مثل العراق والبوسنة.

دكان أبو حمد ..

أبو حمد اسم عربي أصيل، وهو رمز لـ"تاجر نساء" في الأردن والجزائر وليبيا والعراق.. وهو اسم اختاره أحد الكتاب السعوديين الذين انتقدوا ظاهرة استغلال السوريات اللاجئات من قبل خليجيين وعرب من جنسيات أخرى.

يقول محمد العصيمي على صفحات "اليوم" السعودية، "كل ما هو مطلوب موجود عند (أبو حمد): المتينة لها سوق والنحيفة سوقها ماشي.. يجمع هذا الرجل، بسمته (مظهره) الديني ولحيته الطويلة الكثة المصبوغة بالحناء، النساء في دكانه مثل الحبحب.. ويتحدث عن بضاعته وممارساته بمنتهى الثقة، حتى أنه لا يتوانى، مع الاعتذار، عن التهكم على المرأة السمينة التي لا يرغبها الرجال لأنها قد تكسر السيارة إذا ركبتها."

ودكاكين أبو حمد، العربي المتدين الذي يتاجر بالنساء معززا بفتاوى الفقهاء، بدأت انتشارها مع اشتداد الحرب في سوريا، وسرعان ما وجدت زبائنها من شباب وشيوخ راغبين في الزواج بالسوريات، "لسترهن" أو للتكفل بهن من منطلق أنهن لاجئات لا عائل لهن.

إحدى نماذج هذه الدكاكين وصلت إليه إذاعة هولاندا في تحقيقها في مدينة بنغازي الليبية التي تستضيف عددا من العائلات السورية اللاجئة. وقد أوفدت الإذاعة صحفي عربي لمكتبين مختلفين في مدينة بنغازي وقدم نفسه لمسؤولي المكتبين على أنه شاب ليبي مقبل على الزواج ويبحث عن زوجة سورية لاجئة، فطلب منه ملء استمارة ودفع مبلغ نقدي قبل الحصول على زوجة في غضون أيام.

في الأردن كذلك يقول مؤيد اسكيف مسؤول "حملة لاجئات لا سبايا" - التي تأسست لمواجهة الظاهرة ويقودها سوريون وشباب من جنسيات عربية مختلفة - إن العروض والدعوات للزواج من السوريات في الأردن فيه استرخاص للمرأة السورية واستغلال لوضعها كلاجئة خارج سوريا. وقد أشارت تقارير إعلامية إلى ارتفاع عدد الطلبات التي تقدّم بها السعوديون لدى السلطات السعودية للموافقة على طلب الزواج من اللاجئات السوريات في الأردن.

في الجزائر يتم الإقبال على طلب الزواج من السوريات اللاجئات أحيانا تطبيقا للمثل القائل "من لم يتزوج شامية مات أعزبا"، خصوصا بعد أن أدخلته فتاوى الفقهاء في باب "الواجب الوطني" على اعتبار أن الزواج من السوريات هو وجه من أوجه التكفل بهن، واستكمالا لما فعلته الدولة حين فتحت الأبواب لهن ولعائلاتهن.

أطبـــاء الثـــورة الســـورية
مشـــاريع الشـــهادة

■ ياسر مرزوق

رحـل الروائـي الكوبـي الكبيـر "الييغو كاربانتييه" تاركاً لنا وصيته: "إن الإنسـان ليس يعرف أبداً لماذا يشقى أو يأمـل. إنه يتعذّب ويأمـل ويعمل لأناس لن يتسـنى له أن يعرفهم. أناس سـوف يشـقون ويأملـون ويعملـون لحسـاب سواهم. وهذا السـوى لن يبلغ السعادة هو كذلـك، لأن الإنسـان يسـعى دائماً وراء سـعادة ليسـت مـن قسـمته. لكن عظمة الإنسان تمكن تحديداً في رغبته فـي تغيير العالـم وتحمـل الأعباء، في ملكوت السـماوات، ليسـت توجد عظمة يمكن بلوغها. لأن كل شيء هناك تراتب مُقيم. وجود بـلا نهاية حيث لا تضحية ولا راحة ولا ملذّات. ولذا، فالإنسان الذي يسحقه الألم والأعباء، جميل في بؤسه، قادر على الحب وسط المآسي، لن يقدّر له أن يبلغ عظمته... إلا في هذا الملكوت الأرضي".

سـنلقي الضـوء اليـوم علـى واقع الأطبـاء والرعايـة الصحيـة، في خضم الثورة السـورية، واقعُ مـن بلغ عظمته في الملكـوت الأرضي، سـنلقي الضوء علـى معانـاة الأطباء والمسـعفين التي بـدأت مـع اليـوم الأول للثـورة، وطيلة أشهرها السلمية السبعة الأولى باعتراف رأس النظـام، في خطابـه أمام مجلس الشعب، وحتى يومنا هذا...

يشير تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمـر، إلى التصاعـد المثير للقلق في عدد الهجمـات التي أصبـح يتعرض لها أفراد الطاقم الطبي، والمنشآت الصحية التـي يعملـون بهـا، خـلال المعـارك العسـكرية والصراعات المسلحة. وذكر التقريـر أن 600 حادثـة عنـف وهجوم على مستوى العالم، وقعت ضد الأطباء، والممرضيـن، والمسـعفين وسـيارات الإسـعاف، والمنشـآت الصحية، في 16 دولة منها ليبيا وأفغانسـتان والصومال وكولومبيـا، خـلال الفتـرة الممتدة من منتصـف عـام 2008 إلـى نهايـة عـام 2010.

والمؤسـف في هـذه الحـوادث أنه علـى رغم أن بعضها يقـع عرضاً، إلا أن جـزءاً كبيراً منها كان مع سـبق الإصرار والترصـد، وهو مـا يعتبـر جريمة حرب بنـاءً علـى اتفاقيـة جنيـف، التي تنص على حـق جرحـى الحـروب والصراعات المسلحة في تلقي العلاج الطبي، وعلى حـق أفـراد الطاقـم الطبي فـي تقديم خدماتهم بأمن وسـلام. ولكن بعد مرور أكثر من 150 عامـاً على التصديق على هذه المعاهـدة، وقبولها من دول العالم قاطبـة، لا زالـت بنودها تنتهك بشـكل منتظـم متكـرر. والمؤسـف فـي هـذا الوضـع، وبخـلاف وجود نمـط من عدم احتـرام الخدمات الطبية في زمن الحرب والصراع المسـلح، أن مثل هذا السلوك المشـين أصبـح لا يلقـى الكثيـر مـن الاهتمام من قبل الحكومات، أو منظمات المجتمـع الدولي، أو حتـى عامة الناس. فقبل سـنوات قليلة مضت، كان الوضع مختلفاً إذا ما قصفت سـيارة إسـعاف، أو هوجـم مستشـفى من قبل مسـلحين، أو تـم اعتقال أطبـاء أو ممرضات، حيث كان المجتمع الدولي برمته يستنكر مثل هـذه الأفعـال، ولكـن الآن لا توجد ردة فعل تذكر.

وعلـى رغـم مـن أن الإحصائيـات والأرقام تظهر تكـراراً هائلاً لمثل هذه الممارسـات، إلا أن تلـك الإحصائيـات والأرقـام لا تمثـل إلا قمة جبـل الجليد، ولا تعبـر عـن التبعـات قصيـرة المدى، وطويلـة المـدى، التـي تنتج مـن هذه الأفعال مثل ترك الأطباء لمواقعهم في مناطق العنف، وفرار بقية أفراد الطاقم الطبي أثناء الصراعات المسـلحة، وعجز المستشـفيات عـن توفيـر الخدمـات الصحيـة الضروريـة، وتوقـف جمـلات التطعيم. وهذه التبعات تؤثر سلباً بدرجة هائلـة علـى الرعاية الصحيـة المقدمة لجميـع أفـراد المجتمـع، وتحرمهم من العلاج الضـروري لمشـاكلهم الصحية، الناتجـة عـن الصـراع المسـلح، أو من أمـراض مزمنة كانـوا يعانون منها قبل بدء الصراع.

أما في سـوريا فالواقع أكثر قتامة، حيـث عانى الجسـم الطبي في سـوريا منذ اندلاع الثورة الشعبية، من صعوبات جمة تعتـرض قيامه بواجبـه الوظيفي والإنسـاني في آن معا، تبدأ من صعوبة الظروف التي يعمل تحت وطأتها وخطر الوصول لإسـعاف المتظاهرين وتنتهي بالضغـوط التي تمـارس عليه من قبل إدارات المستشفيات الحكومية، والتي لا تكتفي بالتقصير الفاضح تجاه المصابين والمرضى، والذين يتم استجوابهم أثناء إصابتهـم، كما تمارس ضغوط نفسـية على الأطباء من قبـل أطباء وممرضين موالين للنظـام بالدرجة الأولى، والذين لا يتردد بعضهم حتى في الاعتداء على المرضـى والتعاطـي بإهمال مـع الذين يعانون من وضع صحي دقيق.

يقـول روبـرت كينـغ، الصحفـي الـذي يعمـل مع "بـولا ريـس المجيز،" والـذي أراد أن يوثّـق العمل الحسّـاس للمستشـفيات السـريّة فـي سـوريا: "منـذ نيسـان الماضي وأنـا أصور داخل مدينـة القصيـر المحاصـرة، وأركز في عملي على رواية قصة المتطوعين من الأطباء والممرضات والذين يعملون على مدار 24 سـاعة حرفياً، في المستشفى الوحيد الذي يعالـج الناس في المنطقة "مستشـفى الدكتور قاسم" ليس فقط لإصابات الحرب وإنما للمشاكل الصحية اليوميـة مـن ارتفـاع الضغـط أو آلام الظهـر. ويقع هذا المستشـفى وسـط منطقة تتبع لقوات المعارضة السورية، ويعتبر المـلاذ الوحيد للمصابين منذ أن احتل الجيش التابع للنظام المستشـفى الرئيسـي واتخذوه مقراً لهم. ويتضمن طاقم المستشـفى جراحـا واحداً فقط، كمـا يخاطـر المهربـون بأنفسـهم لتهريـب المعـدات الطبيـة إلـى داخـل المدينـة المحاصـرة". يؤمـن كينـغ بأن الدكتـور قاسـم ومـن معه سـيتابعون عمـل المعجزات حتـى لـو زادت عليهم المصاعب.

كما وصف جراح فرنسـي عائد من مهمـة إنسـانية اسـتمرت 19 يومـاً في سـوريا، ما تشـهده مدينـة حمص بأنه وحشـي، مبدياً ارتياحه لرؤية ذويه بعد مغـادرة أرض المجـازر. وقـال الطبيب الجـراح جـاك بيريـس الذي شـارك في تأسـيس منظمة "أطباء بـلا حدود": إنه تأثـر بالقصـف وبـؤس النـاس، ولكنه أيضـا تأثـر بشـجاعتهم رغـم ظـروف الحيـاة الصعبـة، مضيفـا: "مهمتنا هي الذهـاب حيث لا يذهب الآخرون"، ومعلنًا اسـتعداده للعودة إلى سوريا مرة أخرى، وتابـع الطبيب قائـلا "كنت حزينـاً، لقد شـاهدت معانـاة وحشـية لا طائل منها فالأمر لا يطاق، إنه مخز، الناس يموتون ولا أحد يفعل شيئاً".

وكانـت منظمـة أطبـاء بـلا حدود التي قامت بمهمة سـرية في سوريا قد أوجزت رأيهـا بصراحة تامـة، وقالت إن "هدف الجيش السوري هو قتل الجرحى ومن يشتبه في أنه يعالجهم"، كما يؤكد طبيب التخدير الفرنسي الذي طلب عدم كشـف هويتـه "بقينا عشـرة أيـام في الأراضـي السـورية بعدما عبرنـا تركيا خلسة". وأضاف "تمكنا من التنقل بعدما اتخذنـا احتياطـات كثيـرة فـي منطقة إدلب" في شمال سـوريا التي يحاصرها الجيش. وأضاف أن "الواقع متشـابه في كل مكان تقريباً جرحى أصيب معظمهم بالرصاص وشظايا القنابل. وأتذكر أيضا

قدم شخص بترها انفجار لغم مضاد للأفراد. والاعتناء بهؤلاء الأشخاص غالباً ما يقتصر على الإسعافات الأولية".

ومن الصعوبة بمكان تأدية عمل أفضل في بلد يلاحق نظامه المصابين والعاملين في المجال الطبي، أما الجيش فيتعرض للبنى التحتية الطبية، وقال الطبيب الفرنسي إن "المصابين الذين تجرى لهم عمليات يغادرون المستشفى ويعودون إلى منازلهم بسرعة قياسية، وعلى الفور أحياناً، خوفاً من القبض عليهم. ونواجه أيضاً صعوبة في إجراء العمليات. المرافق الصحية دمرت كلها تقريباً، والعاملون في مجال الرعاية الصحية يعتبرون أهدافاً أساسية على غرار المقاتلين".

وأكد طبيب جراح في منظمة أطباء بلا حدود كان ضمن البعثة "يقول الأطباء السوريون إن القبض على طبيب مع مريض يشابه القبض عليه مع سلاح". وقال "إنهم يتعرضون للترهيب". وأضاف هذا الطبيب الذي طلب أيضاً عدم كشف هويته إن "الطبيبين اللذين عملنا معهما أكثر من سواهما خرجا من السجن الذي وضعا فيه لأن السلطات اشتبهت في أنهما قدما مساعدة إلى جرحى أصيبوا خلال تظاهرات سلمية. وقد تعرض أحدهما للتعذيب".

كما رصدت صحيفة "الإندبندنت"، في تقرير لها ما قالت إنه قيام النظام السوري باستهداف العاملين في المجال الطبي. وتقول الصحيفة إن تقريراً لمنظمة أطباء بلا حدود الخيرية يقول إن القوات السورية تستهدف المسعفين والأطباء الذين يعالجون المصابين في النزاع المستمر في سوريا، ويقول باسم مرو كاتب التقرير: إنه على الرغم من أن أطباء بلا حدود غير مصرح لها بالعمل في سوريا، إلا أنها تمكنت من إرسال فرق إلى هناك بصورة سرية، ونقلت الإندبندنت عن طبيب عظام يعمل في إدلب قوله "العثور عليك وأنت تعالج مصاباً يماثل العثور عليك وبحوزتك سلاح. الأجواء في كل المنشآت الطبية متوترة للغاية. يضطر العاملون في الحقل الطبي إلى إعادة المصابين إلى منازلهم بعد تقديم الإسعافات الأولية حتى يتم إجلاء المبنى تحسباً لأي عملية عسكرية". ويشير التقرير إلى أن الكثير من المصابين يمتنعون كلية عن محاولة علاج إصاباتهم خشية أن يعتقلوا أو يعذبوا إذا ذهبوا لمستشفيات تديرها الحكومة.

وفي مواجهة كل هذه الظروف، يبدو أطباء سوريا منقسمون إلى 3 فئات، فئة تضم أطباء مؤيدين للنظام وغير مستعدين لأي تعاون أو تعاطف، وفئة ثانية تقدم مساعدات عن بعد من أدوية ومعدات دون المشاركة على الأرض، إضافة إلى فئة ثالثة تضم أطباء يحملون أرواحهم على يديهم وينزلون إلى المظاهرات غير آبهين بالخطر المحدق بهم، يبحثون عن مكان آمن يضعون عدتهم الطبية فيه.

وبالحديث عن الفئات الثلاث يتبادر للذهن أن الفئات الثلاث أقسموا قسم أبقراط، فمنهم من أوفى بقسمه ومنهم من خان، ولهذا القسم قصة، فقد كانت صناعة الطب قبل أبقراط كنزاً وذخيرة يكنزها الآباء ويدّخرونها للأبناء، وكانت في أهل بيت واحد منسوب إلى أسقليبيوس، وهذا الاسم أعني أسقليبيوس إما أن يكون اسماً لملَك بعثه الله فعلّم الناس الطب وأما أن يكون قوة لله عز وجل علمت الناس الطب، وكيف صرفت الحال فهو أول من علم صناعة الطب، ونسب المتعلم الأول إليه على عادة القدماء في تسمية المعلم أباً للمتعلم. وتناسل من المتعلم الأول أهل هذا البيت المنسوبون إلى أسقليبيوس وكان ملوك اليونانيين والعظماء منهم ولم يكونوا يمكنوا غيرهم من تعليم صناعة الطب بل كانت الصناعة فيهم خاصة يعلم الرجل منهم ولده أو ولد ولده فقط، وكان تعليمهم بالمخاطبة ولم يكونوا يدونوها في الكتب وما احتاجوا إلى تدوينه في الكتب دونوه بلغز حتى لا يفهمه أحد سواهم فيفسر ذلك اللغز الأبُ للابن وكان الطب في الملوك والزهاد فقط يقصدون به الإحسان إلى الناس من غير أجرة ولا شرط.

ولم يزل كذلك إلى أن نشأ أبقراط من أهل قو، ودمقراط من أهل أبديرا، وكانا متعاصرين. فأما دمقراط فتزهد وترك تدبير مهنته، وأما أبقراط فرأى أهل بيته قد اختلفوا في صناعة الطب، وتخوف أن يكون ذلك سبباً لفساد الطب، فعمد على أن دونه بإغماض في الكتب. وكان له ولدان فاضلان وهما ثاسلس وذراقن وتلميذ فاضل وهو فولوبس فعلمهم هذه الصناعة وشعر أنها قد تخرج عن أهل أسقليبيوس إلى غيرهم فوضع عهداً استحلف فيه المتعلم لها على أن يكون لازماً للطهارة والفضيلة، ثم وضع ناموساً عرّف فيه من الذي ينبغي له أن يتعلم صناعة الطب ثم وضع وصية عرّف فيها جميع ما يحتاج إليه الطبيب في نفسه. "قال أبقراط إني أقسم بآلله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج، وأقسم بأسقليبيوس، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً، وأشهدهم جميعاً على أني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي وأواسيه في معاشي وإذا احتاج إلى مال واسيته وواصلته من مالي. وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لأخوتي، وأعلم هذه الصناعة إن احتاجوا إلى تعلمها بغير أجرة ولا شرط وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط أو حلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك. وأقصد في جميع التدابير بقدر طاقتي منفعة المرضى، وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي. ولا أعطي إذا طلب مني دواء قتالاً، ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين. وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة. ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل. وكل المنازل التي أدخلها إنما أدخل إليها لمنفعة المرضى. وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد إراديّ مقصود إليه في سائر الأشياء وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى أو أسمعها في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا يُنطق بها خارجاً فأمسك عنها وأرى أن أمثالها لا ينطق به. فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الأحوال وأجملها وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً ومن تجاوز ذلك كان بضده ناموس الطب لأبقراط".

يبدو الحديث عن أبقراط وقسمه ترفاً، بينما ينقل النظام الجهازَ الطبي المستقل والمحايد إلى صف الأعداء، فبما أن أغلب الأطباء وسائر الطاقم الطبي من مسعفين وممرضين تأبى عليهم ضمائرهم الحرة -فضلاً عن مهنتهم النبيلة- إلا أن يبذلوا غاية الجهد في الإسعاف والعلاج، وبما أن إسعافَ مصابي الثورة وعلاجَهم جريمة في عرف النظام، فقد صار الأطباء والممرضون والمسعفون الأحرار مجرمين... وبينما يستمر النظام في قصف البنى التحتية للمدن، وتتصاعد المعلومات عن إصابات بالكوليرا والتيفوئيد، والحصار يدخل جلد أهالي المدن المحاصرة، وحدها الجرذان في صحة جيدة.

أما عن الدعم العربي والدولي للقطاع الصحي، فقد عدت بالذاكرة إبان الاجتياح الاسرائيلي لبيروت، يوم سئل وليد جنبلاط عن وساطاتٍ تقوم بها إحدى الدول العربية الكبرى، فأجاب "أي نكتة هذه"، وعن موقف الأصدقاء قال: "اسألوا الأصدقاء، نحن ليس عندنا أصدقاء، عندنا أنفسنا وكفى".

نختم ملفنا اليوم بتحيةٍ لكل متطوع ومسعف وممرض وطبيب في ثورتنا المباركة مع الرحابنة والسيدة فيروز ومن مسرحية "جبال الصوان" التي تقول بطلتها "غربة":

اللي بيحاربوا من برا بيضلوا برا

المصدر جوا

لأنو قرر يموت هون النذر..

نقرر نموت أولاً..

اللي ماشيين صوب الموت... بيغلبوا..

تحية للذين "مصدرهم جوا" للماشين صوب الموت لأنهم لابد منتصرون...

ما بعد الثـــورة

■ خالد كنفاني

هل ستنتهي هذه الثورة بمجرد سقوط رأس النظام؟ وهل رأس النظام وحده المشكلة؟ وماذا عن النظام نفسه؟ وكيف تم اختصار كل المشكلة بشخص رأس النظام واعتبار رحيله انتصاراً للثورة؟ وهل ستكون لحظة دخول الثوار للقصر الجمهوري هي نقطة النهاية في الثورة السورية؟

هذه الأسئلة وغيرها ليست ترفاً فكرياً ولا سفسطائية في غير وقتها ولا تحليقاً خارج السرب. بل هي أسئلة لا بد أن تدور في خلد أي سوري يفكر بالمستقبل القريب والبعيد ولا يقف التخطيط عنده إلى ما وراء أنفه كما تفعل كل أطياف المعارضة هنا وهناك.

البعض اختار الإضراب عن الطعام في عالم لم يعبأ بمئات آلاف الضحايا والمهجرين والمعتقلين، ولا ندري أية استراتيجية تلك التي يقضي بها البعض جوعاً بينما الثورة بأمس الحاجة للمفكرين والعقلانيين. أما البعض الآخر فاختار الطريق الأكثر تسلية وفائدة وهو طريق المنتديات والمؤتمرات والجمعيات هنا وهناك. فهذا البعض لم يترك بلداً إلا وزاره "دعماً للثورة"، كما أن بعضهم اختار زيارة اللاجئين في الأردن وتركيا (وطبعاً لا يهمهم اللاجئون في لبنان والعراق لأسباب سياسية مفهومة) ووزعوا عليهم بعض الألعاب وهي زيارة لم تختلف كثيراً عن زيارة غرباء أمثال الأخضر الإبراهيمي أو أنجيلينا جولي. لا يزال منطق التسلط الفوقي يتحكم بأفعال كل هؤلاء حتى عندما يقررون إبداء الجانب الطيب من شخصياتهم. وبينما اختار آخرون اعتبار أنفسهم "مهجرين قسرياً" وذلك للاستفادة إلى أقصى حد من منافع هذا "التهجير" ولم ينس واحدهم (أو واحدتهم) أن يصطحب عائلته بأكملها معه وهكذا يعيش هؤلاء وعائلاتهم بأمان وتستمر حياتهم وحياة أطفالهم بشكل طبيعي بينما هم يواصلون دعم الثورة بنسخ ولصق مقاطع اليوتيوب أو مناشدة "المجتمع الدولي" أو توجيه التحذير من مجزرة قادمة أو الأسوء إصدار التعليمات والتوجيهات للمقاتلين على الأرض وكأن الأخيرين يعترفون بالمعارضين أو تجمعاتهم أو توجيهاتهم.

ليس كل ذلك موضوع هذا المقال، ولكنه كان مقدمة لا بد منها لنفهم كيف يتم سحق سوريا وتدميرها بمنهجية بينما يتيه المثقفون والمعارضون في أروقة المجالس وصالات الفنادق والاتهامات المتبادلة بينهم للتنازع على جلد الدب قبل صيده. لا زلنا عند مقولتنا بأن مهمة إعادة بناء الوطن ونجاح الثورة هي مهمة صعبة جداً وتحتاج لرجال ونساء على قدر المسؤولية التاريخية لينهضوا بالناس ويبثوا فيهم الأفكار الوطنية والبناءة لا أن يتم ترك الناس يعيشون الفوضى بكل أبعادها ويعيشون بغرائزهم لا بعقولهم ثم يبدأ العويل والصراخ والتهليل من الخارج عن الوحدة الوطنية ووعي الشعب. عندما تستمر حالة الفوضى والـ لا نظام في أي بلد مهما كان متقدماً فإن الناس تعود تدريجياً لحالتها الأولى من التقاتل على أسباب الحياة وهناك عشرات الأمثلة على هذه الحالة لدى حدوث الكوارث الطبيعية أو الحروب أو الاختلالات الأمنية الكبيرة في أي بلد.

لن يكون تشكيل بعض الحكومات الانتقالية هنا وهناك ذا فاعلية أو تأثير إذا لم يترافق بجهد كبير على الأرض. يتم تشكيل حكومات بمسميات عديدة وهي خارج الحدود ولا تعلم شيئاً عما يجري داخلها، وإن كان بعضهم على اتصال ببعض الكتائب المقاتلة في الداخل فإن ذلك لا يعني بالضرورة تبعية تلك الكتائب لهذا الطرف أو ذاك أو الائتمار بأوامره، بل على العكس، فحامل البندقية اليوم هو صاحب الكلمة الأعلى والحق في فرض شروطه وهو ما يبدو أن المعارضة لم تتبينه بعد في غمار الحماسة الثورية المفرطة واللقاءات التلفزيونية المكثفة التي لم تترك مجالاً للتفكير أو التخطيط.

إن لم تكن الثورة في مجال القيم والعلاقات الإنسانية والاجتماعية وفي مجال المفاهيم المجتمعية التي ترسخت في وجدان الشعب عبر مئات السنين فإنها ستكون قد عادت إلى المربع الأول دون أي إنجاز. وإذا كان المثقفون والمفكرون والمعارضون الذين نادوا على الدوام برفض تسلط العسكر على الحياة العامة ورفض هيمنة الحزب الواحد أو الرأي الواحد على قدر المسؤولية التاريخية اليوم فإنهم يجب أن يقفوا بحزم في وجه أي محاولة لسرقة الثورة أو الاستيلاء عليها سواء من قبل العسكر أو من قبل أية جهة واحدة. ولهذا لم يكن مقبولاً أبداً اعتبار المجلس الوطني السوري ممثلاً "شرعياً ووحيداً" للسوريين ليس لأنه حقيقة ليس كذلك فحسب، بل لأن السوريين تعبوا من الحزب الواحد "القائد للدولة والمجتمع" وتعبوا من اختصار الأفكار في فكر حزب واحد ومن اختزال وطن كامل في شعار واحد.

لم يكفنا أن تكون أسماء كتائب وفصائل الجيش الحر وغيره تحمل الكثير من الدلالات الدينية المباشرة، وإنما خرج علينا من أراد استلهام الطغيان ولكن بشكل آخر، ففوجئنا بكتيبة "صدام حسين" في معرة النعمان دون أن نعلم ماذا كان يدور في خلد من انتقى الاسم. والسؤال هنا: ماذا لو خرجت إحدى الفرق المقاتلة في العراق اليوم باسم "كتيبة حافظ الأسد" مثلاً، ماذا سيكون موقفنا وموقف المعارضين؟ سيكون سيئاً جداً بالطبع وسيتم اتهام هؤلاء بالسذاجة والجهل بالتاريخ والجغرافيا، فكيف يخرج في سوريا من يحارب الطغيان باسم الطغيان نفسه؟ هذا يوضح حجم الأزمة الفكرية والاجتماعية التي يحياها الشعب العربي عموماً وهو ذو ذاكرة قصيرة وعاطفي إلى أبعد الحدود. نحن نذكر تماماً كيف استطاع صدام التأثير في الكثير من الشباب العربي الذي اختار التوجه طوعاً إلى العراق عقب غزوه عام 2003 تحت مسميات مختلفة ولكنها كانت دائماً تصب في خانة نصرة العراق رغم علمنا اليقين بأن الكثيرين قد تأثروا بشخصية صدام دون أن يعيشوا تحت حكمه. وسيكون من الصعوبة بمكان كسب المزيد من التعاطف مع الثورة السورية في حال استمرار المسألة على ما هي عليه، فحالة التشرذم الرهيبة التي تسود الفصائل المسلحة باتت تهدد الوطن كله بالسقوط (إن لم يكن قد سقط فعلاً) بين مطرقة النظام وسندان المعارضة وكلاهما لن يرحم الآخر في نهاية المطاف.

في التعرض لظاهرة "الاجئات لا سبايا" والتي انشغل بها الكثيرون في الأسابيع الماضية لا بد من الإشارة إلى أن هذه الظاهرة ليست جديدة أبداً وكانت تأخذ مكانها في المجتمع بأشكال صارخة وغير إنسانية ولكن القلائل من تعرضوا لها. كان المواطن الخليجي يأتي ليدفع الأموال الطائلة لخطبة إحدى البنات رغم فارق السن والثقافة الرهيبين في بعض الأحيان ويجبرها أهلها على القبول بالزوج الجديد الذي سيقدم لها كل ما تتمناه، ولم يكن الأهل أو غيرهم يهتمون بعواقب هذا الزواج على الصعد النفسية والاجتماعية وهو ما تمثل بهروب الكثير من الفتيات أو طلاقهن السريع لأنهن لم يحتملن الحياة الجديدة القائمة على مبدأ العبودية لا مبدأ المساواة أو التراحم. إن من كانوا يقبلون بذلك في الأوقات العادية لن يكون غريباً قبولهم بها في هذه الظروف. ورغم رفضنا القاطع لكل أشكال الاستغلال البشري فإن علينا أن نفهم جذور المظاهر الاجتماعية أو الاقتصادية التي ننتقدها اليوم، لأنه بدون فهم أسباب الظاهرة وتحليلها لا يمكننا القضاء عليها أو تصحيحها.

ويسري الأمر نفسه على مسألة قتل من تعرض للاغتصاب وهي ظاهرة سلبية ولكنها ليست جديدة على المجتمع العربي عموماً والسوري خصوصاً، وقد تحدثنا وتحدث الكثيرون عن ضرورة إنهاء مسألة جريمة الشرف واعتبارها جريمة يعاقب فاعلها بالعقوبة القصوى مهما كانت الذرائع وراء الجريمة، أما تخفيف الأحكام لمجرد أن زوجا قتل زوجته أو أباً قتل ابنته بناء على شك ما أو خبر كاذب أو محرف فهو تعد على الروح الإنسانية والكرامة الإنسانية التي وهبها الله للبشر، فكيف إذا كانت الفتاة ضحية اغتصاب من مجرمين أو ذئاب بشرية؟ فتجد أن عقابها الموت وهي تصبح ضحية في الحالتين بل والأسوء فإن قاتلها يحتفل بغسل عاره بينما لا يزال دمها يسيل حاراً على الأرض وعلى مرأى الجميع.

وقد تكون الطامة الكبرى في التعصب والطائفية، وهما مصيبتان ابتلي بهما السوريون منذ زمن بعيد، وكل كلام عن وحدة وطنية وتعايش هو من قبيل الخرافات الاجتماعية التي شاء بعض المثقفين أن يدفنوا رؤوسهم في الرمال ويوهموا أنفسهم بوجودها. وبقطع النظر عن بعض الأمثلة الوردية التي يحلو للكثيرين ذكرها عن حالات التعايش والسلام، فإن الواقع يقول شيئاً آخر. كل التعايش المزعوم انطوى منذ الأزل على مبدأ الغالب والمغلوب، ولهذا فإن التاريخ الذي قد لا يسجل الكثير من الحوادث الاجتماعية لأن المؤرخين كانوا في الغالب خاضعين لسلطان الرقابة عبر كل العصور، يذكر بعض الحوادث التي راح ضحيتها المئات وربما الآلاف نتيجة صراع إما طائفي أو عشائري أو قبلي أو غيره. وكان ذلك يتم إما بمعرفة السلطة الحاكمة أو برضاها على الأقل. ونحن إذ نذكر هذه الظاهرة فلأننا نعلم أن عواقبها في الظرف الحالي ستكون أشد وأقسى نتيجة للاحتقان والاستقطاب الرهيبين اللذين يعيشهما الناس.

لا يجب أن تترك هذه الثورة لمصيرها دون توجيه أو تصويب أو قيادة، لقد قامت الثورة عفوية وسلمية ونقية ونريدها أن تستمر كذلك، أما من يدخل اليوم ليلوثها ويركب موجتها ويتاجر بدمنا وأرواحنا فلا مكان له كائناً من كان. نحن بحاجة إلى الأفكار أكثر من الأحلام وإلى الواقع أكثر من الخيال، فالحلم بدأ بالتحول إلى حقيقة ولا نريده أن ينقلب كابوساً يجعلنا نندم أو نيأس فلا مكان لذلك بعد أن صممنا على المضي للأمام وأن نحرق مراكبنا مع كل الماضي البائس.

آخر الكلام: يقول المتنبي:

مَا كُلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ
تجري الرِّياحُ بِمَا لا تَشْتَهي السُّفُنُ

حسني البرازي 1895-1975

■ ياسر مرزوق

ولد حسني البرازي في حماة عام 1895، العشيرة الكردية واسعة الثراء والنفوذ، والتي نبغ منها العديد من رجالات التاريخ السوري الحديث، كتب المؤرخ السوري أدهم آل جندي، في كتابه "تاريخ الثورات السورية": "كان أحمد آغا البرازي في مقدمة ثوار حماة، يحرض الشباب على الاستبسال، وحمل السلاح صناديد آل البرازي، فخرج إلى القتال شاكي السلاح الوجيه الشيخ المرحوم خالد درويش البرازي مع أولاده، أحدهم الدكتور درويش البرازي الحائز على شهادة الدكتوراه من جامعة سويسرة الدولية، وشقيقه المرحوم الشهيد صالح درويش البرازي، وبرز علي آغا البرازي إلى الميدان حاملاً رشاشه وبندقيته، وولده زهير وهو في السادسة عشرة من عمره". وبعد جلاء المستعمر عن سوريا، كانت لهم مواقف وطنية مشرّفة، ودورٌ قياديٌ هامٌ في بناء البلد، واستلم الكثير منهم مناصب هامة في الدولة، وقد كتب خالد العظم في كتابه "صانعوا الجلاء" عن نجيب آغا البرازي: أنه كان من بين السبعة الكبار الذين كانوا يقررون المسائل الخطيرة في البلد. وقبل هذا العهد لعبوا دوراً هاماً في العهد العثماني، ووقفوا ضد حركة التتريك ومظالم جمال باشا السفاح، وقد أصدر جمال باشا حكم الإعدام بحق أصلان آغا بن باكير البرازي وغيره من رجالات البرازية، وقد كان دور البرازية جلياً في ثورة حماه، ولم ينقطع دعمهم عن الثورة السورية الكبرى، بالمال والمجاهدين، وكانت حماة أول مدينة سورية جلا عنها الاحتلال الفرنسي عام 1945 م.

درس البرازي الحقوق في استانبول وحصل على المرتبة الأولى طول فترة دراسته. انتسب إلى حزب العهد، وكان منقسماً إلى حزب سوري وعراقي فعمل على توحيدهما ونجح في مسعاه. عين مفتشاً للعدلية في عهد الملك فيصل بن الشريف حسين في سوريا، ثم عين متصرفاً على مدينة حمص وبقي في هذا المنصب لأقل من سنة. وفي عام 1928 نجح في انتخابات الجمعية التأسيسية مندوباً عن حماة، وكان هدفها الرئيسي سن دستور للبلاد. ونجح في دخول البرلمان في أكثر من دورة ممثلاً لحماة.

تسلم وزارة الداخلية في عهد الرئيس أحمد نامي عام 1926 الذي وصفت وزارته بأن نصفها من الوطنيين المتطرفين ونصفها من المعتدلين وكان حسني بك من الفريق الأول وفق ما ذكره يوسف الحكيم في الجزء الرابع من مذكراته، إلا أنه استقال منها مع الوطنيين احتجاجاً على رفض فرنسا لمشروع معاهدة كان تم الاتفاق عليه مع المفوض السامي دي جوفنيل، نفي بعدها إلى الحسكة ومنها إلى أميون في لبنان وكان معه مجموعة من الوطنيين الأحرار منهم فارس بك الخوري ولطفي الحفار.

عاد إلى دمشق وزيراً للمعارف عام 1934 م، واستقال من منصبه عام 1936 م ليصبح محافظاً للاسكندرون إلى 1938م. تسلم رئاسة الوزراء في عهد الرئيس تاج الدين الحسيني واحتفظ لنفسه بوزارة الداخلية، حيث احتفظ بأغلب وزراء حكومة الحكيم، مع تعديل طفيف كتعيين الأمير حسن الأطرش وزيراً للدفاع بدلاً من ابن عمه عبد الغفار، وأضيف إلى الوزارة الجديدة الأستاذ "منير العجلاني" صهر رئيس الجمهورية، وزيراً للدعاية والشباب، والسيد "راغب الكيخيا" لوزارة العدل. وما لبث أن نشأ الخلاف بين البرازي الموالي للإنكليز والرئيس الحسني الموالي للفرنسيين، انتهت بإجبار الشيخ تاج البرازي على الاستقالة بعد أن صرح الأخير، في حفلة رسمية أن ليس ثمة استقلال وأن الجنرال "كوله" هو صاحب الكلمة العليا في الدولة... تسلم منصب النائب الام العسكري عام 1949 بعد انقلاب الزعيم، محافظ حلب منذ عام 1943 حتى عام 1949، نائب حماه في الجمعية التأسيسية 1949، عضو مؤتمر حمص الوطني عام 1953.

في انتخابات عام 1954 مع تقلص نفوذ الأسر الكبيرة في الريف الحموي، فشلت قائمة "البرازي، العظم" في الانتخابات واكتسحت قائمة الحوراني المدعومة من الفلاحين، ومع هذه الهزيمة الكبيرة لم يبتعد البرازي عن الشأن العام بل على أثرها قام بإرسال برقية لرئيس الجمهورية نشرتها جريدة الناس في عددها الصادر في 10/21 /1954، والتي كان نصها:

"فخامة رئيس الجمهورية تلجأ إليك الأمة باعتبارك رئيسها الأول، وحامي دستورها واستقلالها، لتقف بكل إيمانك وكل رجولتك، وبكل ما فيك للقضاء على مؤامرات فرنسا وروسيا وإسرائيل، في وطنك السوري، إن هذه المؤامرات تأخذ شكلاً جدياً خطيراً بنشاط العملاء المروجين لإيصال شخصيات معينة موثوق بها من قبلهم إلى الحكم، وفي القضاء على استقلال هذه الأمة وتقاليدها ودينها، تاريخك وواجبك يدعوانك لاتخاذ الموقف الحازم لإحباط هذه المؤامرة".

وفي منتصف الخمسينات أصدر جريدة الناس، وكان يكتب فيها آراءه السياسية والاجتماعية. كان رحمه الله رجلاً شجاعاً جريئاً لا يساوم ولا يهادن في جميع مواقفه.

بعد تجربة الوحدة والانفصال، انتقل البرازي للإقامة في لبنان، وقام بتدوين مذكراته، وهذه المذكرات هي عبارة عن مجموعة من المقابلات أجراها قسم التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1969، وصدرت عن الأكاديمية الكردية في أربيل، لتسلط الضوء على أدوار عدد من الشخصيات السورية البارزة من ذوي الأصول الكردية في فترة مبكرة من تاريخ الدولة السورية الحديث بالأهمية والفعالية معاً.

توفي في لبنان عام 1975.

في 15 تشرين الثاني عام 1952، نشرت المجلة الناقدة "المُضحك المُبكي" مقالاً كان البرازي أحد أبطاله، نورده لطرافته:

هناك رئيس ديوان أيضاً في أحد المحافظات تلكأ في تنفيذ قرار وزاري بشأن التهريب لأنّه "بيّت استخارة" ووَجَد أنّه من الأوفق أن لا ينفذه في الوقت الحاضر! وهذه الحكاية يعرفها "الأخ حسني بك البرازي" لأنّه كان يومها رئيساً للوزارة، وكان التهريب على الحدود على قدَم وساق، فاجتمع مجلس الوزراء برئاسة حسني بك واتّخذ عِدّة قرارات لمُكافحته والضَّرب على أيدي المُهرّبين، ولمّا كان حضرة المُوظّف قائماً على الحدود فقد أبلغ ما يخصُّه لتنفيذه ولكن صاحبنا "بيّت استخارة" كما قلنا ورأى أنّ الأوفق عدم التنفيذ!..

وبَعد بضعه أيّام شَعرَت الوزارة بأنّ التهريب ما زال قائماً وبأنّ قراراتها على الحدود لم تُنفّذ، فركبَ حسني بك سيّارته وقصَد تلك الحدود ليُشرفَ بنفسه على عمليّة المكافحة وغَيرها ويسأل عن سبب عدم تنفيذ القرارات التي اتّخذها مجلس الوزراء بهذا الشّأن، فاجتمع بالموظّف المُختَص وسأله: - لماذا يا ابني لم تُنفّذ القرار الذي أرسل إليك ولم توقف الجمال الكثيرة التي كانت تحمل الحبوب إلى الخارج؟! وهنا أخذ حضرة الموظّف يَحمَرّ ويَصفَرّ ثم راح يُتمتِم في فمه كلمات غير مفهومة.. فقال له حسني بك: احكي الصحيح، أنا أعرفُك إنّك رجُل تَقي وصاحب دِين ولا تكذِب.... وهنا تشجّع الموظّف وقال له: الحقيقة أنّي "بيّتُ استخارة" فرأيت أن الأوفق للمَصلحة أن أرجئ تنفيذ هذه القرارات إلى وقت آخر!..

ولا تسأل أيُّها القارئ ما هو جواب الذي أجابه به حسني بك فإنّنا نعتذر عن نشره ويمكنُك أن تُقدّر ما هو؟ من نفسِك إذا استعمَلْتَ ذكاءك!..

التفاؤل والتشاؤم والجدل الدائر بينهما في الثورة السورية

■ عُلا شيب الدين

1

في أغلب المناظرات، والتّصريحات، والسّجالات، والمواقف، والجدالات، والتفكّرات التي قاربت الحدث السوري، في صيغها العامة والخاصة، المكتوبة والشفاهيّة، المقروءة والمسموعة، النظرية والعملية، تبدّت رؤى متفائلة وأخرى متشائمة. وكلتا الرّؤيتين المتشائمة والمتفائلة بدتا كأنهما استطالة لكلّ من طرفيّ الصراع الوجوديّ في سوريا؛ أيّ النظام والشعب الثائر، إذ مراراً أعلن النظام ورئيسه أنها "خِلصت" كنوع من "التفاؤل" أو طمأنة المتضامنين معه في الداخل، والواقفين إلى جانبه في الخارج. لكن "الأزمة" كما درج على تسميتها النظام وقوى السيطرة في العالم، هي (ثورة) بالنسبة إلى الشعب الثائر، وفي التاريخ لم يحدث أن تمكنت سلطة من قمع ثورة شعبية، كما أنه من غير الوارد منطقيّاً وواقعيّاً أن "تخلص" الإرادة الحرة أو تنفد، ما يعني النصر المؤكد والحرية. تلك هي الصيغة المتفائلة التي واجه بها الثائرون تفاؤل النظام. وبين التفاؤلين "النظامي" و"الثوريّ" ثمة فوارق أصيلة، لعلّ أهمها أن الأول بدّد نفسه بنفسه، كونه حسماً نظريّاً مسبقاً، يترفّع عن الواقع الحيّ وينكره، وقد كذّبه أيضاً استمرار الثورة واتّساعها وتجذّرها، في حين أن الثاني استشرافيّ، تأمليّ، مستقبليّ ينطلق من التجربة الحيّة، ومن الواقع الضّاج بالحدث. الواقع الذي بدا كأن التفاؤل الثوريّ يحايثه ويتسامى عليه بهدف التخلص منه نقلة نقلة باتجاه "الخَلاص" أو ما يشبه "النيرفانا" بعد أن عاش الثائرون تجربة اهتداء شخصيّة نمّت في دواخلهم مهارة التجاوز الضرورية من أجل مواصلة النضال، والصمود أمام المآسي. إن التفاؤل الثوري هنا هو تفاؤل "الخَلاص" الذي يناقض تفاؤل الـ"خِلصت"، أي التفاؤل بمعناه النظاميّ، إن جاز التعبير، فالخَلاص خِفّة وحرية لا يُتَصوّر نفادها، كما أنه خروج من مرحلة ودخول في مرحلة أخرى أكثر رقيّاً بعد عبور سلسلة من التجارب القاسية. لكن "خِلصت" إعلان عن نفاد، عن حتميّة مَيِّتة، عن تطرّف وحدّ ونهاية وهاوية، وعن قنص الواقع الحيّ ودفنه في الماضي. لا سيّما وأن "خِلصت" هي من نتاجات تغييب الواقع، إذ السلطة ما برحت منذ اليوم لاندلاع الحدث في أواسط الشهر الثالث 2011 تتحدّث عن محاربتها لـ"مؤامرة خارجيّة" و"عصابات مسلحة" غير موجودة أصلاً، وهنا يظهر التباس التفاؤل النظامي، فالسلطة بدت للمتلقي كأنها في حرب مع أشباح حيث تغيب هوية الخصم الواضحة ومحدّدة المعالم، بينما بدا التفاؤل الثوري واضحاً جليّاً، فالسوريّون الثائرون أعلنوا منذ البداية، على الملأ، أن خصمهم النظام ورئيسه، وأنهم يريدون إسقاطه.

2

وفي قبالة المتحمّسين الثوريّين، هناك القانطون واليائسون والعازفون، من طراز القائلين مثلا: "رجّعونا لورا عشرات السنين، هي الحرية إلى بدن ياها؟" أو القائلين كردّ فعل على الدمار والخراب، والدماء والأشلاء: "ريتها ما كانت الثورة، كنّا عايشين بأمان ومستورين"، قد تكون تلك المواقف مبرّرة نوعاً ما، ربما بسبب اعتياد هؤلاء على العيش لعقود طويلة تحت إمرة عائلة مالكة/ حاكمة أمسكت بمقاليد السلطة بلا منازع. والاعتياد، على المدى الطويل، من شأنه دفع المرء صوب التّراخي واللامبالاة، والتّسليم بالواقع كما هو مع غياب تام لأي حسّ نقديّ وإنسانيّ وأخلاقيّ. وقد ضاعفت وحشيّة النظام غير المسبوقة في قمع الثورة، على الأقل في العصر الحديث، من الإحساس بالعجز لدى البعض، والميل إلى الإلقاء باللائمة على الثائرين الحالمين بالعدالة وبالعيش الحر الكريم، وتحميلهم وزر ما لحق بالبلاد من خراب، خاصة وأن الثائرين لم يتمكنوا بعد مرور أشهر طويلة جداً على ثورتهم من تحقيق الهدف الرئيس، أي رحيل الرئيس، ما جعل صورة الثائرين في ذهن هؤلاء المتشائمين تبدو ضعيفة، على خلاف ما حصل في ثورات أخرى من ثورات "الربيع العربي" والتي لم تدم طويلا حتى أسفرت عن هروب طاغية (بن علي)، وجَبْر آخر على التّنحّي ثم البدء بمحاكمته (مبارك)، و"قَتْل" ثالث (القذافي)، وخَلع رابع بعد حرقه (صالح). يُضاف إلى ما سبق، تنامي وحدة الشعب السوري الثائر وتجلّي "يُتْمه" بوضوح تام، بعد فشل أو إفشال كل المساعي والاجتماعات، والمؤتمرات...؛ المحليّة والإقليمية والدولية الرّامية إلى حلّ "الأزمة" ووَقف "العنف" نتيجة غياب الإرادة الفاعلة والفعليّة في الحل، كل ذلك وأكثر دفع لتصوّر النظام كأنه فاطر الإرادة الشريرة، ويستحيل لإرادة أخرى أن تنتصر عليها أو تفوقها. ولكن تبقى مثل هذه النظرة المتشائمة كليّاً أو جزئيّاً، بالنسبة إلى المتفائلين، كأنها عِلمٌ ميّت لا يبارح السطح، أو كأنها موقف "لا أدْريّ" يشكّك بالثورة ويقلل من شأنها ومن شأن ما فعله الشعب الثائر وما أنجزه. هذا من جهة. ثم إن من ثار، من جهة أخرى، ما كان ليثور لو لم يكن "خراب الدولة" قد أتى على الأخضر واليابس. لذلك، فإن التمدّن أو ما يظنّه المتشائمون حيال التغيير "نَعَماً" كانوا يغرقون فيها قبل الثورة "المشؤومة"، لن يكون تمدّناً حقيقياً، من وجهة نظر المتفائلين بالتغيير والمؤمنين بالثورة، إن لم يرتبط بالحرية، إذ الحرية بالنسبة إلى هؤلاء شرط من شروط التقدّم. إن "الرجوع إلى الوراء" الذي يتكلّم عنه ذوو المنطق المتشائم، الذين يصبّون اللعنات على من ثار وكان السبب في دمار البلاد وخرابها، وتدهور الأوضاع المعيشيّة والصحيّة وغيرها، لا يرون، من وجهة نظر المتفائلين الراغبين في التغيير، أن للتمدّن والتقدّم وَجْهَيْن مادي ومعنوي، فلو أن العدالة الاجتماعية والكرامة والحرية والديمقراطية والقضاء العادل المستقل والتداول السّلميّ للسلطة كانت موجودة لما انتفض الشعب. ويبدو أن وجهة النظر هذه تتقاطع وآراء مفكّر تنويريّ مثل (رفاعة رافع الطهطاوي 1801-1873)، فالطهطاوي أيضاً يرى أن التقدّم له وجهان: ماديّ، يتعلق بالمنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة والعمران والمرافق وغيرها. ومعنويّ، شديد الصلة بالأخلاق والآداب، وكلاهما متمّم أحدهما الآخر. وفي الثورة، بالنسبة إلى المتفائلين، كل شيء تتّصل حلقاته: كبرياء الثائرين وحماستهم، حميا الذين انخرطوا في العسكرة مثلاً، قنوط الإنسان العاجز عن الانخراط في الثورة، الضّجّة التي تصاحب كل انتصار أو تقدّم جديد للثورة، رغبة الثائر في الهدم الخالص وعزمه على أن يكون فوق الراهن دوماً، الزّهو بالنفس الذي أدى إلى ظهور مُثل عليا جديدة لم يعرف معها الشباب الثائر أي نوع من أنواع الصبر أو ربما الهدوء البارد الذي يطبع شخصيّة السياسيّ التقليديّ مثلاً، إذ يجب أن يعيدوا بناء عالمهم الخاص في أسرع وقت ممكن، وهُم في الوقت نفسه غير مؤطّرين بإيديولوجية محدّدة قد تشكّل خطراً على نقاء عواطفهم، كونهم لا يؤمنون إلا بما يسنّونه لأنفسهم. إن جملة هذه العواطف المتوهّجة، المتقلّبة، القلقة وجوديّاً، المتضاربة، هي ما يمكن أن يُطلق عليه اسم الثورة، تلك النار الشاملة، التي نخطئ إن اعتقدنا أنها مجرّد مرحلة، لأنها تطال كل شيء، وهي مصير فرديّ واجتماعيّ بما اتّسمت به من احتدام مركّز، وحسّ بأهميتها الاجتماعية الأساسية، وثقل في تأثيرها الإقليمي والعالمي ليس المحليّ فحسب، ومضيّ في هتك حُجُب النظام السوري كجزء من نظام عالمي قائم على ما يبدو على السيطرة والعدوان والغَلَبَة.

3

إن الرّيبة حيال أي تغيير، الناجمة عن الرؤيا المتشائمة، إضافة إلى أنها دفعت بمتبنّيها إلى عدم الاكتراث بمستقبل سوريا وفقدان الثقة به، كونه غير معنيّ أصلاً بقيم الديمقراطية والحرية والعدالة التي قد تحل على الناس مستقبلاً؛ فإنها أيضاً، أي الرّيبة، انقلبت قنوطاً ويأساً جعل

الربيبيّ موهَن القوى، وغير مكترث بالرّاهن. الراهن الذي تعصف به كل الموبقات والرذائل والمفاسد والشرور من قتل وتهجير وتشريد وتجويع، ومن مجازر وجهد النظام الحثيث من أجل وأد البلاد تاريخياً وحضارياً وثقافياً وجغرافياً ربما! ما يعني في نهاية المطاف ضعف الإرادة والعجز عن الانتماء إلى الثورة، أو حتى إلى أي شكل من الأشكال التغيير. على أن المأثور الثوري الذي تراكم على مدار أشهر طويلة من عمر الثورة مكن من تقديم الدعم الذي يُشَرْعِنُ الرؤيا المتفائلة المتجاوزة لمِحَن الراهن، والمنطلقة مما حققته الثورة من مكتسبات سياسية وأخلاقية. ومن مفارقات الثورية السورية الكثيرة والنّادرة، أن يكون مَنْ في وسط الميدان الثوري، وتحت القصف، أو خارج من تحت الأنقاض، متفائلاً، في حينٍ قد يكون آخَر في مكان بعيد كل البعد عن ميدان الثورة، متشائماً! ومن مفارقاتها أيضاً، أن تستمر التظاهرات المدنيّة السِّلميّة بعد ما ينوف على العام ونصف العام، وتعود لتتأجّج كلما ساد اعتقاد جازم بأن الثورة قد تعسكرت إلى درجة باتت تستحيل معها عودة التظاهرات! وهذا ما يمكن أن يُقرأ على أنه حنين الثورة الدائم إلى ذاتها، والرغبة في "العَوْد الأبدي" إلى منبعها الأساس، المنبع المدنيّ السِّلميّ رفيع المستوى إنسانياً وعقلياً وروحياً وقيمياً.

4

إن اللذين وقعوا تحت تأثير "سِحْر" الثورة بطابعها السلميّ في أشهرها الأولى، يبدون كأنهم "سُحِروا" إلى درجة مفارقة الواقع، والانفصال عنه، إذ غابت المرونة التي تخوّلهم مواكبة الثورة في منعرجاتها ومنعطفاتها وتحوّلاتها، وظلّوا أسرى صورة محدّدة ثابتة، ومطلقة عن الثورة، رافضين الإصغاء إلى أو الاعتراف بأي طارئ جديد قد يحل عليها. وهنا تبدّت رؤيا أخرى مهمورة بالتشاؤم وأسّسها الخوف، الخوف من انحراف الثورة ذات التكوين المدنيّ السِّلميّ باتجاه العسكرة المحفوفة بكل أنواع المخاطر. ولكن على الضفة الأخرى ثمة من بدا "هيرقليطيّاً" في التفكر في واقع الثورة، وأظهر مهارات في إدراك هذا الواقع كصيرورة، على اعتبار أن "الأشياء في تغيّر متّصل"، وأنه "لا يمكننا أن ننزل النهر الواحد مرّتين، فإن مياها جديدة تجري من حولنا أبداً". هكذا تجلت على الضفة الأخرى رؤيا متفائلة انطلقت من الواقع كصيرورة، ولم تكن لتفاجأ بأي منعطف في الثورة قد يغيّر بعضاً من ملامحها الأوليّة، مادام الواقع في تغيُّر دائم، وما دمنا غير قادرين على السباحة في نهر الثورة مرّتين، لأن ثمة مياهاً (إحداثيّات) جديدة تجري فيها دوماً. كما سمحت مرونة الرؤيا المتفائلة بإدراك أنه ليس في الواقع مُطلقات، وبالتالي فإن سِلميّة الثورة لا يمكن أن تكون مطلقة، خاصة وأنها جوبهَت ببطش قلّ نظيره في القسوة والبشاعة. وقد جرت العادة، في مثل هذا النوع من السِّجال، أن يستحضر البعض ممن تحنّطت في أذهانهم الثورة بصورتها الأوليّة السِّلميّة "المطلقة"، (غاندي) باعتباره فيلسوف اللاعنف. وغالباً ما يتم، عند استحضار غاندي، تجاهل واقع الثورة بما ينطوي عليه من حيثيّات وتفاصيل ودقائق تنتمي إلى زمان ومكان محددَيْن، هما زمان ومكان الثورة نفسها، وغالباً أيضاً ما يتم تجاهل صعوبة أو لا إمكانيّة ولا معقوليّة نقل تجربة إنسانية أخرى، وتطبيقها على واقع مختلف زمانيّاً ومكانيّاً. والمفارَقة هنا، أنه حتى غاندي الذي يُعتبَر اللاعنف أوّل عقائده وآخرها يعلن أن المرء إذا لم يكن له إلا خيار بين الجُبن والعنف، فإنه ينصح بالعنف. وفي كتابه (ر. دراته: العدالة والعنف- باريز- هاتيه -1958 ص91) يقول: "إنني أعتنق الشجاعة الهادئة بأن أموت من دون أن أقتُل. ولكن من يفقد الشجاعة فأنا أرغب إليه تنمية فنّ أن يَقتل ويُقتَل، بدلاً من فراره المشين". وفي حين يرى المتشائمون من عسكرة الثورة أن موقفهم يتّسق مع حجم هَوْل النظام الذي زاد وتضخّم، ومع الانهيار الشامل تقريبا لمدن وبلدات بأكملها بات النظام يقصفها ويبيدها بكل أنواع الأسلحة، كما يتّسق موقفهم مع ما باتت تقترفه بعض عناصر "الجيش الحر" من جرائم قد تقترب من جرائم النظام، ومع وجود بعض المتديّنين الأصوليّين في صفوف الكتائب المقاتلة، الأمر الذي يدفعهم للتخلّي عن مناصرتهم الثورة وتأييدهم لها.

يرى المصرّون على التفاؤل – على الرغم من كل شيء- أنه ليس عدلاً أن يتم التخلي عن الثورة، وأن يُضرب عرض الحائط بكل ما مرّت به قبل أن تصل إلى هذه الحال. وأن هذه الحال لا تُخيف، ولا تشكّل خطورة على الثورة ككل مادامت ليست داخلة في تركيبتها، وما دام هناك فسحة دائمة لتقويم أخطاء الثورة وتصويبها، كما أنه ليس عدلاً أن يكون (غياث مطر) أهم من (حسين هرموش) مثلاً. ومن المعلوم أن كلتا الشخصيّتين المذكورتين هما رمزان من رموز الثورة التي تعجّ برموز البطولات والتضحيات، ولمّا كان مطر رمزاً للسِّلميّة والورد والماء، فإن هرموش رمزاً للنّبل العسكري، ورَفض الانصياع إلى أوامر مؤسسة عسكريّة آثرت غزو الديار بدلاً من حمايتها، وقد لاقى كلٌ من مطر وهرموش مقابل مواقفهما المشرّفة المصير نفسه، أي التعذيب والموت. إضافة إلى ما سبق، يرى المتفائلون أيضاً أن المساواة بين الضحيّة والجلاد لا تجوز، وأن الوحش الحقيقي هنا هو النظام دوماً. عدا عن ذلك، فإنه لمن الأنانيّة المفرطة بمكان، بالنسبة إلى هؤلاء المتحمّسين المتفائلين، أن تكون مع الثورة حين تغمرها السعادة والجمال ظنّاً منك أنها ثورة ملائكة أو أنبياء، ثم تتخلّى عنها حين تمرّ بأزمات ومطبّات؛ فكل ما جرى ويجري في الثورة إنما هو من أكثر الأمور طبيعيّة وواقعية وضرورية. إن فقدان الثقة بثورة اندلعت من أجل تحرير الوطن والإنسان، يعني فقدان الحُلم، إذ لا يوجد شيء ناقص للتغلّب على التشاؤم، إلا الهدف الواضح، وبمجرد وضوح الهدف تخسر "الشياطين" رهاناتها. فالثورة التي ولّدت عبر الويلات التي نجمت عنها مشاعر الحزن والأسى واليأس دفعت البعض إلى تبنّي خطاب مثبط محبط، هي نفسها التي ألهبت كل مشاعر الحب والرغبة والحيوية والتّوق، وقدّمت أمثلة مهمة في التسامح والتعاضد، والتفاني من أجل القضايا العادلة في الحياة، وهي نفسها التي أسهمت في إعادة اكتشاف الإنسان /الفرد ذاته، وانبثاق شعور عميق بالاستقلال، وسموّ الروح والعقل، والنفس والوجدان أعاد الاعتبار إلى قيم المواطنة والوطن والوطنيّة.

في التفاؤل كضرورة ثوريّة

كيف تحيا البشريّة حياة وجدانيّة مستقرّة والناس يبحثون عن مصالحهم الخاصة، ويهجرون المُثل العليا، ويزخر العصر بالأعمال الشريرة والمساعي العشوائيّة؟ إن الفشل في تقديم إجابة شافية عن سؤال من هذا الطراز، ربما يكون سبباً في ولادة إرادة منكسرة مهزومة، حلّ عليها التشاؤم بعد أن حَاولتْ وفشلتْ، وربما يكون سبباً كذلك في سواد شعور بتفاهة الحياة ونقدها. ولكن السؤال المقابل الذي قد يكون أهم من السابق هو الآتي: ما السبيل للخروج من معمعة الموت الناجم عن التشاؤم والتغلغل في شبحيّته؟ السبيل حتماً هو النقيض، أي الامتلاء بالحياة. إن زعماء العالم الذين يسحقون خصومهم، ويخدعون شعوبهم، ينصتون باحتقار بالغ إلى مطالب الشعب الثائر في سوريا، ذاك الشعب المكوّن من أعدائهم وضحاياهم في آن معاً، فلماذا لا يأكلون من الفاكهة؟ ولماذا لا يتركونها تفسد إذا كانوا سيربحون من تبديدها؟ ولكن الشعب الثائر يدرك، على ما يبدو، اللعبة وقواعد اللعب فيها، وإدراكه هذا هو واحد من بين الأسباب العديدة والمتعدّدة التي تمنعه من الرجوع عن ثورته، فمدينة "داريا" في ريف دمشق مثلاً، ارتكب النظام فيها مجزرة ارتدّ فاعلوها بتاريخ (2012/8/25) إلى الحياة البهيميّة بكل ما تعنيه العبارة من معنى، مجزرة راح ضحيّتها حوالي (440) شخصا بينهم أطفال ونساء! بيد أنه في المدينة نفسها رفع الثائرون في إحدى تظاهراتهم لافتة رسموا في أسفلها هلالاً يحيط بصليب، وكتبوا عليها متسائلين طامحين: "ما المانع أن يكون رئيسة الجمهورية امرأة مسيحية؟" إن هؤلاء الذين أعياهم التعب وجافى النوم عيونهم، يحدوهم الأمل بعد أن أدخلت الثورة السورية عليهم- كمؤمنين بها- تحوّلات عميقة جعلت منهم أصحاب مبادأة عقليّة ومتبصّرة، وصار الشعب الثائر يطمح لأن يبتدع لنفسه قوانينه بحرية، فما كان مستحيلاً في الأمس يصبح اليوم ممكناً، وما هو ممكن اليوم قد يصبح في الغد واقعاً، وفي كل الأحوال يبقى التفاؤل ضرورة ثوريّة.

عن: الجمهورية لدراسات الثورة السورية

محمد أبي سمرا: موت الأبد السوري

■ ياسر مرزوق

كتابنا اليوم "موت الأبد السوري" لمحمد أبي سمرا، يروي فيه فصولا من حقبة رمادية من حياة السوريين وتاريخهم الصامت بعد مقتلة حماة في عام 1982، وفصولاً أخرى عن خروج الشعب السوري على الصمت والقهر في ثورة ملحمية بدأت في مارس 2011. سيرة الأشخاص ووقائعهم وشهاداتهم الحية، هي مادة هذا التأريخ الإخباري والروائي عما عاشه سوريون في حياتهم العائلية ومدارسهم وجامعاتهم ومدنهم وأحيائهم السكنية، وفي المعتقلات والسجون، قبل الثورة وفي خضمها الراهن، إلى الناشطين الشباب في حمص وبانياس وبيروت، وروياتهم عن الثورة.

من "جامعة الخواء البعثي"، إلى مشاهد إعدامات ميدانية عام 1983 في حلب، إلى "صالون لضباط الاستخبارات" وسجونهم في بيروت والحرجلي، إلى "شبكات مافيا الفساد والتهريب"، وإلى شباب بانياس في خروجهم من "التصوف إلى الثورة"، يروي هذا الكتاب قصة عن موت الأبد في سوريا، وعن تحررها منه، ليصير لها تاريخ، وليتمكن السوريون من رواية تاريخهم.

قراءة الكتاب تشعرك بالخوف، خاصة لمن يعرف كيف أن الفساد هو القاعدة والاستثناء في أن تكون نزيهاً وشريفاً وصاحب ضمير. وبات نادرا الالتقاء بأشخاص من هذا النوع، في مؤسسات الدولة السورية، لكن صفحات كثيرة من الكتاب تبرع في وصف المؤسسة البيروقراطية التي تتكون منها الدولة، حيث فساد يتركب على آخر، لم تعد تنفع فيه علاجات أو إصلاحات، وهكذا كانت الثورة أفضل طريق إلى الحل، ولكن إلى أين وصلت..

كتاب "موت الأبد السوري"، واحد من مؤلفات قليلة، تعري اهتراء الداخل وتفضح أساليب القمع وقساوة أجهزة الأمن، كم أتمنى لو أنه يقع في يد أحد المدافعين عن النظام ليقرأه، علّه يجد فيه ما يمكنه من التصالح مع نفسه، ليبدد سحابة الوهم التي تغطي الحقيقة الواضحة أمام عينيه.

يقول أبي سمرا عن كتابه: في العام 2006، عقب "ثورة الأرز" اللبنانية التي أدت الى جلاء الجيش السوري ومخابراته عن لبنان في نيسان 2005، بدأت بتسجيل هذه السير والشهادات في سياق الحدث اللبناني الكبير الذي دفع برجل سوري الجنسية بيروتي المولد والاقامة، إلى رواية سيرة حياته المأساوية بين لبنان والسجون السورية. كانت روايته تلك فاتحة لتسجيل شهادات وسير أخرى تنقل ما يعيشه السوريون في بلدهم الذي تندر الأخبار والكتابات عن حياته وحوادثه الاجتماعية. ظننت أن وجود ألوف العمال السوريين المنتشرين صامتين منذ سنين كثيرة في الديار اللبنانية، يسهّل هذه المهمة. لكنني سرعان ما اكتشفت أن صمتهم لا ينطوي على الخوف من الرواية والخبر، بل على ما يمكن تسميته إرادة الخوف والكتمان المديدة التي اجتثت مقدرتهم على الخبر والرواية، وتركتهم يتعودون العيش في الصمت، كأن حياتهم في بلادهم وفي الديار اللبنانية مطلبها الوحيد تحصيل القوت كفاف العيش. فالنظام الاسدي الذي تسلط على سوريا تسلطاً طغيانياً شبه استعماري، حوّلها سجناً لمحو الذاكرة والخبر عن الحوادث والتأريخ، وقسر إرادة الكلام والتعبير إما على الكلمات الأبدية للبعث والرئيس القائد، وإما على التواصل الآني الوظائفي شبه البيولوجي.

لذا كان على هذا الكتاب أن ينتظر الحدث السوري الكبير المستمر منذ آذار 2011، لكي يُستكمل ويجد سياقه في خضم تحرر السوريين من سجن الصمت الكبير، ومن كلمات الأبد البعثي والاسدي. والحق أن هذه السير والشهادات ليست سوى نماذج قليلة من فيض ما رواه ويرويه السوريون منذ بدء ثورتهم، وما يستمرون في روايته بعد صمتهم المديد، ليصير لهم ولبلدهم ومجتمعهم حياة وتاريخ يخرجانهم من ذلك الأبد الخاوي المميت.

الفصل الأول من هذا الكتاب رواه سوري - لبناني يدرّس في جامعة شيكاغو، ويحمل الجنسية الاميركية. تنقل روايته شهادة وثائقية عن الحياة اليومية، الأكاديمية والادارية والطالبية، وعن برامج التعليم، في جامعة حلب التي أمضى الراوي فيها سنتين دراسيتين ما بين (2003 - 2006)، أستاذاً زائراً منتدباً من جامعته الاميركية. لكن شهادته هذه تتجاوز الحياة الجامعية إلى وجوه من أحوال المجتمع السوري ومؤسساته الإدارية، وإلى وصف الخواء الذي يكتنف حياة الطلبة والمدرّسين الجامعيين.

راوي الفصل الثاني لبناني من مؤسسي "التيار الوطني الحر" الذي كان مناهضاً للاحتلال السوري للبنان طوال العقد الأخير من القرن العشرين ونصف العقد الأول من الألفية الثالثة، قبل عودة الجنرال ميشال عون من منفاه الباريسي الى بيروت في العام 2005. شهادة الراوي هذا تنقل يوميات اعتقاله وتعذيبه في أحد سجون المخابرات السورية في بيروت العام 1994.

ثالث الرواة سوري الجنسية، لبناني النشأة الأولى والمولد من أب سوري، وفد في خمسينات القرن العشرين إلى بيروت، فعمل فيها وتزوج من لبنانية طرابلسية وأنجب منها أبناء ثلاثة، تاركاً زوجة أولى وأطفالاً في حلب. بعد تلقيه التعليم ونيله الشهادة الثانوية في بيروت، انتقل الراوي الى دمشق ودرس في جامعتها (1980 - 1985)، فتفوق في الهندسة الميكانيكية. قبل سفره إلى اسبانيا لمتابعة دراساته العليا بمنحة من جامعة برشلونة، شهد في شوارع حلب إعدامات ميدانية من ذيول المطاردات والاعتقالات والمقاتل الأسدية في سوريا (1989 - 1985). أما بعد عودته من اسبانيا متفوقاً في دراساته الجامعية هناك، فأدى عزوفه عن الانتساب إلى "طلائع البعث" في دمشق، إلى حرمانه من معادلة شهادته الاسبانية بأخرى سورية تمكنه من العمل. حمله هذا على القيام بما يشبه "انتفاضة" فردية، وارتكاب أشنع المعاصي والآثام في "سوريا الأسد": شتيمة البعث والرئيس القائد في مكتب وزير التربية. فعلته هذه دمّرت حياته كلها، إذ عرّضته لملاحقات أمنية مستمرة في سوريا ولبنان، ولسلسلة من الاعتقال والتعذيب المتكرر في السجون السورية ما بين 1988 و2005. حين ذهب أخوه للبحث عنه في دمشق، اختفى ولم يعثر له على أثر منذ العام 1989. في مطلع العام 2012 استكملت شهادة الراوي بعد اعتقال ابنه البكر، اللبناني المولد والنشأة والاقامة، وإرغامه على أداء خدمته العسكرية الإجبارية في خضم الثورة السورية، فروى والده اخباراً عن زياراته دمشق للقاء ابنه والتداوي من مرض السرطان.

في الفصل الرابع رواية بانورامية تتناول سيرة عائلة توزعت حياتها وإقامتها بين حمص وبيروت منذ ستينات القرن العشرين. الشخصية المحورية في هذه الرواية العائلية المتشعبة امرأة سورية المنبت والإقامة والزواج الأول في احدى قرى جبال العلويين، قبل زواجها الثاني من رجل لبناني بيروتي، وإقامتهما وإنجابهما في بيروت. لكن هذا الزوج خُطف واختفى في نهار "السبت الأسود" في بدايات حروب لبنان، فتجددت زواجات المرأة وإنجابها، وأقامت علاقات بضباط من المخابرات السورية في بيروت حتى جلاء الجيش السوري عن لبنان في العام 2005.

الراوي هو حفيد المرأة هذه من ابنتها البكر من زوجها السوري الأول. الابنة، أم الراوي هذه، حملتها أمها الى بيروت طفلة، فنشأت في كنف زوج الام الثاني البيروتي قبل خطفه واختفائه. بعدما شبت، فرت من بيروت مع رجل حمصي يعمل سائق سيارة لنقل الركاب بين سوريا ولبنان، فتزوجها وأقاما وأنجبا في حمص، حيث ولد ابنها الراوي العام 1980. لكنه منفرداً رحل عن مدينة الى بيروت في العام 1999، فتلبنن اجتماعياً، من دون أن تنقطع زياراته المتباعدة لأهله في حمص. تتتبّع الرواية السيرتين المتوازيتين والمتداخلتين، السورية الحمصية واللبنانية البيروتية للراوي وأمه وجدته ووالده وعائلتيهما. وتروي أيضاً وقائع وحوادث من الحياة اليومية في حمص وحاراتها وأحيائها وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية وتحولاتها، فتقدم لوحة بانورامية حية عن المجتمع الحمصي في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. أما في بيروت، فإلى روايته محطات من سيرة حياته المتلبننة، فإن الراوي الشاب يصف علاقات جدته برجال من المخابرات السورية في أحياء بيروتية، وحوادث الشقاق والعنف الأسريين بين الجدة وبناتها في أزمنة حروب لبنان، وبسبب تلك العلاقات تأجّج هذا الشقاق الأسري العنيف، حتى جلاء الجيش السوري ومخابراته عن لبنان العام 2005.

مع بدء الثورة في سوريا، استفاقت ذاكرة الراوي السورية والحمصية، فعزف عن بحثه عن سبيل للهجرة إلى بلد أوروبي، وانفرد بنفسه في غرفة في بيروت، مستطلعاً وقائع الانتفاضة ويومياتها في حمص، عبر الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي. ثم لم تلبث غرفته البيروتية أن تحولت ملتقى ناشطين سوريين فروا من بعض المدن السورية المنتفضة. أخيراً يقوم الراوي بزيارة سرية إلى حمص، مجتازاً الحدود اللبنانية - السورية مع مجموعة من صحافيين أوروبيين، قبل مدة قصيرة من هجوم الجيش الأسدي على حي بابا عمرو. من هناك يروي يوميات الثورة ومشاهداته ولقاءه أحد أعضاء التنسيقيات في المدينة، ومشاركته في تظاهرة ليلية في حارة طفولته وفتوته، الخالدية.

"يعلم الشاب أن البلد محكوم بألوهية الأسد الابن، وأبديّته التي ورثها عن أبيه، فلا يزال الأب يراقب ابنه ويحميه من كل حدث زمني قد يسلبه الأبد وسلطته. وقد جرى التوريث، فهو هذه العملية تحوّلت السلطة رمزاً أحادياً يدل على الخلود فحسب، وربما سيفضي هذا الرمز بنظام البعث إلى السقوط من دون أن تدري العائلة الحاكمة نتيجة اطمئنانها إلى حكمها المؤبد بالأمن الدنيوي والخالد بإرهابه الألوهي، فيتكلم الشاب على أن رجال الأمن أرغموا المعتقلين على الركوع وتقبيل صور الأسد باعتباره الإله، وذلك للتوبة عن الكفر والتشكيك في خلوده. إذاً، تمكن "الأبد" من الموت، غلبة. وتحت وطأة الكبح صار الموت شعراً. لكن من رمزيته، كما في حلم الشاب، يتفلت السوريون من سطوة الخلود في لعنة الربيع السوري التي تذهب إلى مخترع مقولة "الأبد" وتسترجع موتهم منه: "يا حافظ يلعن روحك يا حافظ". يسترجع المتظاهرون الموت شعراً، في انتظار أن يصبح نثراً ينتصرون به على كل "أبد". للمرة الأولى يستبدل السوريون عبارة "الأبد" البعثية بـ"الموت"، ويضعون نهاية لحكم الخلود. فحين تناصر حمص مدينة درعا، يهتف المتظاهرون فيها "يا درعا حنا معاك للموت"، وليس "يا درعا حنا معاكِ للأبد". هذا الشعار يصوغ علاقة المتظاهر بالموت مرة ثانية، بعيداً من شعر السلطة، أي من كتبها الموت نفسه. بفعل الصياغة الجديدة، يعود الجسم إلى دائرة الشعور به، والوقت إلى جريانه المنظم في فضاء لا وجود لمؤسسات الأبد فيه، بعدما خفق قلب الموت من جديد. "

في الفصل الخامس الأخير من هذا الكتاب رواية تفصيلية عن أحوال المجتمع المديني في بانياس منذ ثمانينات القرن العشرين، وعن يوميات الانتفاضة في المدينة ودوافعها المحلية، وعن أحوال شبانها الذين خرجوا في تظاهرات يومية من مساجدها إلى شوارعها وساحاتها بالتزامن مع بدء الانتفاضة في درعا في 18 آذار 2011. الراوي في هذا الفصل شاب جامعي من بانياس. وهو يستعيد سيرة حياته وحياة مجايليه من شبان مدينته، وتحولات وعيهم "الإسلامي" في تسعينات القرن العشرين والعقد الأول من الألفية الثالثة. هذا قبل مباشرتهم الانتفاضة في مدينتهم، على نحو عفوي بلا إعداد ولا تنظيم مسبقين، متأثرين بصور الثورة المصرية وأخبارها التلفزيونية وعبر الانترنت والفيسبوك. أما التظاهرات اليومية في بانياس فلعب الفضاء الالكتروني والهاتف الخليوي وكاميراته، دوراً اساسياً في تنظيمها وفي تواصل شبانها الناشطين مع ريف المدينة الساحلية الصغيرة، ومع شبان التنسيقيات في المدن السورية الأخرى.

كما يدل الراوي على مشاعر أهالي بانياس السنّة، المكتومة، حيال استبعادهم من الوظائف الرسمية والعامة في مدينتهم، تفتّحت ووعيت وكبرت. فإلى مينائها النفطي ومصفاته اللذين تُشحن منهما مشتقات النفط عبر محطة قطارات توزع المشتقات الى أنحاء سوريا الساحلية والداخلية، تشكل بانياس منعقداً لشبكة طرق حديثة تُنقل عليها السلع من مرفأي اللاذقية وطرطوس إلى الداخل السوري. لكن 90 في المئة من موظفي هذه المنشآت الحكومية وغيرها من أبناء الطائفة العلوية. فالمحطة الحرارية

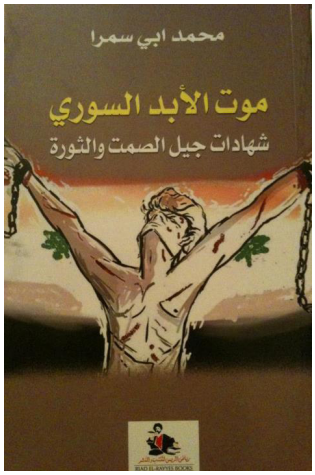

القضاء المستعجل في سوريا

■ ياسر مرزوق

لتوليد الطاقة الكهربائية في المدينة، مديرها ومعظم موظفيها من العلويين. ومن بين نحو 400 موظف يعملون في ميناء النفط ومصفاته وشركة نقل مشتقاته، يندر الموظفون السنّة. والعلويون العاملون في هذه المنشآت، في غالبيتهم الساحقة من ريف بانياس ومن طرطوس. والمقيمون منهم في بانياس ينزلون في حي القصور. لذا تغلب على أعمال أهالي بانياس السنّة، المهن الحرة والحرف وأعمال البناء، إلى التجارة الصغيرة في السوق، وصيد الأسماك في الميناء. والشبان الذين يحصّلون تعليماً جامعياً يهاجرون للعمل في دول الخليج، وقلة ضئيلة منهم تعمل في التدريس. فقبل مطلع الألفية الثالثة، إبان حكم الرئيس الأسد الأب، كان من الصعب على السوري أن يحظى بوظيفة حكومية إن لم يكن بعثياً، أو على ولاء لحزب البعث، وصلة ما به. ثم إن أبناء العائلات التي تُصنّف بأنها من أصحاب «السوابق»، يحرمون من الوظائف العامة. فمن سبق أن قام قريب له بنشاط سياسي، وخصوصاً في صفوف «الإخوان المسلمين»، فاعتقل أو قتل أو فرّ الى الخارج، يقفل في وجهه باب الوظيفة العامة بجريرة قريبه، أخاً كان هذا القريب أو أباً أو عماً أو خالاً أو ابنا لعم أو لخال أو لعمة أو لأخت. أما متصدرو الوظائف الإدارية، فيحوّلون مواقعهم في الإدارة ملكاً لهم، ويفرضون خوّات وإتاوات على أصحاب المعاملات في إداراتهم. وإذا لم يكن متصدّر هذه الدائرة الإدارية أو تلك علوياً أو صاحب حظوة حزبية أو في جهاز أمني، فغالباً ما يصير موظف علوي أو حزبي أدنى منه مرتبة في دائرته، صاحب النفوذ الأقوى. ورجال الأجهزة الأمنية – وهذه يبلغ عددها 15 جهازاً في سوريا الأسد، منها الأمن السياسي والأمن العسكري وأمن الدولة والأمن المركزي والأمن الجوي... إلخ – يتدخلون في كل شاردة وواردة من حياة الناس وشؤونهم وأعمالهم. فإحياء حفلة عرس، مثلاً، يتطلب الحصول على موافقة أمنية مسبقة من «مفرزة» الحي أو الحارة أو المنطقة. ورجال الأجهزة الأمنية يرتدون أزياء مدنية ولا تفارق المسدسات خصورهم في حلهم وتجوالهم في المدينة. أما الذين يحرسون المقار الأمنية فيقفون أو يجلسون أمام أبوابها حاملين بنادقهم الحربية الرشاشة. والمقار الأمنية بيوت عادية يُختار أن تكون منفردة ومنعزلة على طرف الأحياء والحارات، من دون علامات أو إشارات فارقة تدل اليها أو تميزها. لكن الناس في المدينة يعلمون الى أي جهاز أمني يتبع هذا المقر أو ذاك. وإذا اعتقل جهاز أمني ما شخصاً من الأهالي، ثم حقق معه وأطلق سراحه بعد أيام أو أسابيع أو شهور من الاحتجاز العرفي وفقاً لقانون الطوارئ، فإن المعتقل الذي أخلي سبيله، يدخل في متاهة إجراءات وملاحقات أمنية تقوم بها الأجهزة الأخرى. وإذا لم يعتقله مجدداً هذا الجهاز أو ذاك، يصير ملزماً أن يحضر دورياً الى المقار الأمنية، لإثبات وجوده أو للتحقيق معه، كي يشعر بأنه خاضع للمراقبة الدائمة. وفي محافظة طرطوس البالغ عدد سكانها نحو 800 ألف نسمة من ضمنهم سكان بانياس، يقدّر عدد عناصر الأجهزة الأمنية بما بين 3 و4 آلاف رجل من النظاميين الذين يضاف اليهم عدد غير معروف ولا ثابت من المخبرين المتعاقدين.

"في هذه الديار، حين كان الفتى مثلي يتوق الى متنفس ما لتواصل وتعارف وصحبة ونشاط تفاعلي مع أقران له وأمثال، يبادلهم ويبادلونه المدارك والرغبات الجديدة، في حيّز خارج الفضاء البيتي والعائلي الضيق، لم يكن يعثر على ذلك في مجتمع خنقته منذ عقود «جمهورية الخوف» البعثية، وحطمته، فانكفأ أهله على أنفسهم وعلاقاتهم وتقاليدهم القديمة المحافظة، للاحتماء بها كملاذ في ما يشبه معتقلاً جماعياً كبيراً".

عرف القانون رقم 26 لعام 1938 الأمور المستعجلة بأنها: "الحالات التي يلجأ أحد فيها إلى القضاء لوصف حالة قائمة أو لإجازة عمل مستعجل صيانة لحقوق الطرفين من الضياع أو لتهيئة وسائل إثبات عند فصل الخصومة في أساس الدعوى".

وعرفتها كذلك الفقرة الرابعة من المادة 78 قانون أصول بأنها: "هي المسائل التي يخشى عليها من فوات الوقت، وقد ترك المشرع السوري تقدير الحالات التي يتوفر فيها الاستعجال لقناعة وتقدير القاضي"، ويستخلص القاضي توافر عنصر العجلة من خلال وجود خطر حقيقي محدق وحال يبرر اتخاذ إجراء معين بطلب من المدعي للمحافظة على حقوقه ودرء هذا الخطر بما يكفل صيانة هذا الحق أو تثبيته أو حمايته، ولا يجوز لقاضي الأمور المستعجلة اتخاذ الإجراءات التحفظية إن كانت تتعلق بالمسائل التالية:

1 - المسائل التي تدخل في اختصاص المحاكم الشرعية.

2 - المسائل التي تدخل في اختصاص المحاكم الجزائية.

3 - المسائل التي تدخل في اختصاص المحاكم العسكرية.

4 - المسائل التي تتعلق بأعمال السيادة.

5 - المسائل التي تتعلق بالقرارات الإدارية.

6 - المسائل التي تتعلق بالعقود الإدارية.

7 - المسائل التي تدخل ضمن اختصاص رئيس التنفيذ.

8 - قضايا الإفلاس..

9 - المسائل المتعلقة باختصاص هيئات قضائية خاصة.

10 - المسائل المتعلقة باختصاص المحكمة الجمركية.

لا بد من الإشارة ميعاد الاستئناف لأحكام قاضي الأمور المستعجلة "خمسة أيام" تبدأ من اليوم الذي يلي تاريخ تبليغ الحكم. ولا حجية للحكم المستعجل أمام محكمة الموضوع التي لها أن تغير أو تبدل فيه جزئياً أو كلياً أو أن تهدره بكامله أو تلغيه أو تعدله باستثناء أحكام وصف الحالة الراهنة التي تبقى محل اعتبار دون أن تكون ملزمة لمحكمة الموضوع. كما أنه لا حجية للأحكام المستعجلة إلا بين طرفي الخصومة وخلفائهم ولا تسري على الغير ولا حجية لها تجاه الغير وبالتالي لا يجوز التمسك بها ضد شخص لم يمثل في الخصومة الصادرة فيها.

شروط رفع الدعوى المستعجلة:

يشترط فيمن يتقدم بالدعوى المستعجلة أن تتوافر فيه صفات:

المصلحة: بأن يكون له فيها مصلحة وهي المنفعة التي تعود عليه من التجائه للقضاء ولا يشترط أن تكون المصلحة قائمة وحالة بل يكفي توافر المصلحة المحتملة.

الصفة: يفترض أن يكون صاحب مصلحة شخصية ولا يجوز إقامتها من شخص لم تثبت صفته أو شخص لا شأن له بالأمر. ويكفي أن تكون ظاهرة وبالقدر الذي تطلبه طبيعة الدعوى المستعجلة.

الأهلية: ليس من الضروري توافر أهلية التقاضي العادية لأن توافر الضرورة والسرعة التي تتطلبها الإجراءات لا تحتمل الانتظار وعدم مساسها بالموضوع يبرر رفعها ممن لا أهلية له في رفعها وفق القواعد العامة فيجوز للوصي رفعها بدون إذن القاضي الشرعي كما يجوز رفعها من قبل المحجور عليه للسفه ومن القاصر المأذون له بالإدارة ولناقص الأهلية.

أنواع المسائل المستعجلة:

1 - المسائل المستعجلة بطبيعتها.

2 - المسائل المستعجلة بنص القانون.

الشروط الواجب توافرها في الطلب المستعجل:

1 - عنصر العجلة: "لا يجوز أن يكون الاستعجال من صنع الخصوم أو باتفاقهم أو لمجرد رغبتهم أو رغبة أحدهم وإذا كان في الأمر عنصر العجلة وتراخى المدعي في طرح دعواه بحيث زالت صفة العجلة فلا يعود القضاء المستعجل مختص للنظر في القضية. كما أنه إذا شطبت الدعوى المستعجلة ولم تجدد إلا بعد فترة طويلة يستشف منها تنازل المدعي عن الإجراء المستعجل وأن الحق المطلوب صيانته غير جدير بالحماية العاجلة مما يتعين معه الحكم بعدم الاختصاص.

2 - عدم المساس بالموضوع: يشترط حسب نص المادة 78 أصول عدم المساس بأصل الحق أو جوهر النزاع، وأصل الحق: هو ما يتعلق به وجوداً أو عدماً ويدخل ما يدخل في صحته أو يؤثر في كيانه أو يغير في الآثار القانونية التي رتبها له القانون، وإذا مست الدعوى أصل الحق في ظاهرها أو باطنها فإن القاضي يعلن عدم اختصاصه.

- إن تصدي القاضي المستعجل لمسألة محل خلاف في القضية والقضاء لا يعتبر بحد ذاته مساساً بأصل الحق فله أن يجتهد في تفهم المعنى الذي يقصد الشارع ثم إنزال حكم القانون على عناصر النزاع. يمتنع على القاضي المستعجل تفسير العقود إلا إن له أن يتعرف إلى طبيعة العلاقة القانونية القائمة بين الطرفين.

أما الاستثناء من قاعدة عدم المساس بالموضوع ففي الحالات التالية:

1 - تصديق صلح بين الخصوم أمامه فيصدقه ولو تناول العقد حقوق والتزامات تخرج عن وظيفة القضاء المستعجل.

2 - الأمر بمحو وشطب العبارات الجارحة أو المخالفة للآداب من أوراق الدعاوى أمامه.

3 - البحث في موضوع عدم اختصاص القضاء المستعجل أثناء النظر في الدعوى المطروحة ولو تعرض خلال ذلك للموضوع لا للفصل فيه وإنما لمعرفة ما أن كان مختصاً بالفعل أم لا.

أمثلة عن القضايا الداخلة في اختصاص قاضي الأمور المستعجلة:

- يختص قاضي الأمور المستعجلة بطرد غاصب من عقار أو بطرد واضع اليد بغير سبب قانوني، حتى لو أثار الغاصب دفوع موضوعية وذلك أن تبين للقاضي أن هذه الدفوع ليس لها ظل من الصواب وأن القصد منها هو عرقلة اختصاص قاضي الأمور المستعجلة.

- يختص بالأمر بتسليم عقار مؤقتاً لمن يبدو أنه صاحب أرجح باستلامه.

- تمكين المستأجر من وضع يده على العين المؤجرة لو طرد منها بغير وجه حق.

- تمكين المستأجر الجديد من وضع يده على العين المؤجرة متى كان ظاهر عقد الإيجار صحيحاً.

- تقرير حق مرور مؤقت لعقار على آخر إن كان العقار محصوراً ولا يمكن الانتفاع به أو استغلاله بغير اتصال بالطريق العام بالمرور على العقار المجاور مع عدم المساس بحقوق الملكية.

- الإجازة بتمرير مجرى مياه بأرض الغير لعدم إمكانية إيصال المياه إلا عن طريق هذه الأرض.

- الإجازة بتمرير المداخن والبواري وقساطل المياه المالحة عبر الشقق العليا والسفلى في بناء مشترك.

- وقف الأعمال التي يجريها أحد الشركاء في ملك مشترك.

- وقف الأعمال التي يجريها المستأجر في العين المؤجرة له بدون إذن من المالك أو المؤجر.

- الترخيص للمستأجر بإجراء الإصلاحات العاجلة الضرورية مع عدم إلزام أي من الطرفين بتكاليفها وحفظ حق المستأجر بإقامة دعوى موضوعية بالتكاليف.

- تسليم عقار مثار نزاع بين طرفين لأحدهما يبدو أن لحقه فيه ظل من الصواب إلى أن يفصل بموضوع النزاع من محكمة الموضوع.

- الإجازة بإجراء أعمال ضرورية لا غنى عنها لدرء خطر داهم أو لإبعاد خطر لا يمكن تداركه.

- الأمر بإزالة أشياء وضعها شخص في عقار آخر بغير إرادة مالكه.

تجمع أحرار القابون

ألوان عدة بصوت واحد: لا للظلم ولا للاستبداد

■ سعاد يوسف

حي القابون الدمشقي هو من أوائل أحياء العاصمة دمشق والتي انتفضت مع بداية الثورة السورية في وجه الاستبداد الذي رزح الحي تحت وطأته منذ عشرات السنين وعانى سكانه الكثير بسبب إهمال النظام وظلمه للحي، فرغم عدد سكانه الكبير إلا أن النظام وعلى مر سنين عديدة لم يعنى بحل أبسط مشاكل القابون، فلا مدرسة ولا مشفى يقوم على خدمة السكان، ولا نادٍ أو ملعب رياضي يكون متنفساً لشباب الحي، ورغم ذلك عرف عن أهل القابون اهتمامهم بالحياة السياسية في سوريا ومشاركتهم الواسعة فيها، فلمعظم الأحزاب السورية أنصار في الحي ولأهله اهتمامات سياسية وثقافية متنوعة.

خرج أهالي القابون في مظاهرات كانت من أكبر مظاهرات العاصمة دمشق في الأشهر الأولى للثورة. ومن منا لا يذكر عشرات الآلاف الذين جابوا شوارع القابون في جمعة العشائر أو جمعة أسرى الحرية. ومن لا يذكر استقطاب هذا الحي للكثير من الأشخاص من مختلف المذاهب والطوائف ليقولوا جميعاً كلمتهم بصوت واحد: لا للظلم ولا للاستبداد.

وكغيره من الأحياء المنتفضة تعرض الحي لوحشية النظام سواء عن طريق الاعتقال لخيرة شبابه أو قتل الكثير من متظاهريه السلميين الذين كثيراً ما قاموا بإهداء رجال الأمن وروداً حمراء قوبلت بالرصاص الحي. وكنتيجة لما حدث في القابون منذ بداية الثورة شعر العديد من شباب الحي بضرورة تنظيم نشاطاتهم سواء كانت السلمية أم الإغاثية أم الإعلامية وتوحيد صوتهم كي يكونوا في خدمة حيهم وأهالي حيهم، فخرجت مجموعة منهم بما سمي "تجمع أحرار القابون" وهم يصفون أنفسهم في صفحتهم على موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك:

"بدأ مبكراً - حي القابون - وبكل شبابه وانتفضوا مرحبين بالحرية ومتحدين الاستبداد والعبودية فقالوا كلمتهم وحاربوا الرصاص بالحجارة ولم يتوقفوا عن التظاهر اليومي أبداً فخرجوا بعشرات الآلاف وكان لهم الحشد الأكبر على مستوى العاصمة دمشق حيث تجمع مايقدر بـ 100 ألف متظاهر في زفاف شهداء مجزرة القابون الذين كما غيرهم من الشهداء القابون كانت دمائهم ثمناً غالياً علينا ولكنه رخيص فداء سوريا الحرية. ورغم احتلال القابون من قبل عصابات الأسد إلا أن شبابها لم يستسلموا فأبدعوا بالحرية والمظاهرات المميزة والأفكار الجديدة فحملوا شماسي الحرية واحتفلوا بالعيد على طريقة الثورة وأبدعوا بالبث المباشر فظهر أبنائها على شاشات العالم متظاهرين وناطقين وناشطين فكانوا ومازالوا على قدر المسؤولية متسلحين بالإيمان والعلم".

وكان لي مع عدد من أعضاء التجمع هذا الحوار.

| متى بدأ التجمع بالظهور وكيف كان ذلك؟

| | ظهر تجمع أحرار القابون في الشهر السابع من العام 2011 حيث شعرت مجموعة من الأشخاص الفاعلين الذي يعملون على شبكة الانترنت أن عليهم استغلال جهود الشباب الذين يعملون على أرض الثورة ومحاولة النهوض بالعمل الثوري داخل الحي. منذ انطلاق الثورة في حي القابون وذلك في أول مظاهرة بتاريخ 2011/3/25 بذل هؤلاء الشباب أقصى جهودهم لتنظيم المظاهرات السلمية والأعمال الثورية المختلفة الخاصة بالثورة من توثيق للشهداء والمعتقلين ومساعدة بعض الجرحى وحتى القيام بإيصال أخبار الحي وكل ما يحدث فيه إلى القنوات الإعلامية المختلفة.

| من هم المسؤولون عن إطلاق التجمع؟

| | هم الشباب الذين قاموا بربط الجهد المبذول على الأرض مع الجهد الفاعل على شبكة الانترنت. ونريد أن ننوه هنا أن العديد منهم أصبح الآن في عداد الشهداء ونتمنى لهم الرحمة فهم قد استشهدوا في سبيل الله وفي سبيل سورية والثورة. كما أن عدداً منهم هو الآن قيد الاعتقال ونتمنى لهم الحرية من سجون النظام الأسدي قريباً.

| كيف تم اختيار الاسم؟

| | تم اختيار اسم التجمع من واقع الحال الذي كان يعيشه الحي وبالاتفاق بين أكثر من أربعة عشر شاباً كانوا من رواد الثورة في الحي. وقد اختاروا اسم التجمع بحيث لا يكون حكراً لأحد الأشخاص وإنما يجمع كل الأحرار في حي القابون الدمشقي.

| ما هي الفكرة الأساسية التي انطلق التجمع لأجلها؟

| | نحن انطلقنا من حرصنا على نجاح الثورة السورية وتوحيد جهود العاملين في الثورة داخل حي القابون للوصول إلى الهدف الأساسي الذي انطلقت ثورتنا لأجله من إسقاط النظام وبناء سورية جديدة حرة وتحقيق الاستقرار لكل السوريين.

| ما هي المهام الأساسية للتجمع؟

| | لدى التجمع العديد من المهام لعل أهمها هو تنظيم الحراك السلمي داخل الحي ودعمه في كل الجوانب المتاحة، فرغم ما آلت إليه الثورة في الأشهر الأخيرة فنحن ما زلنا نؤمن بأهمية العمل السلمي وبأنه لا يجب أن يتوقف. كما أننا نعمل على توثيق انتهاكات الأمن والجيش النظامي بحق أهالي الحي، ونهتم بمتابعة الجرحى وأهالي المعتقلين والشهداء. إضافة إلى كل ذلك فإن نشر أخبار الحي وإيصالها إلى القنوات الفضائية والجهات الإعلامية والصحافية الأخرى هو من مهام التجمع الأساسية.

| كم شخصاً يضم التجمع؟ في الداخل وفي الخارج؟ وكيف تختلف مهامهم؟

| | عدد الأشخاص الموجودين ضمن التجمع غير محدود فكل ناشط أو ناشطة ثورية يعملون داخل الحي هم من التجمع. نحن لا نعتبر التجمع اسماً نعمل لأجله إنما نحن الأحرار الذين يعملون لأجل الثورة في الحي.

وتختلف مهام الأعضاء باختلاف الاختصاصات فكل يعمل في ظل الخبرة التي يدركها إما في الجانب الطبي أو الإعلامي أو حتى الخدمي.

كما أن التجمع يضم عدداً من الأشخاص خارج سوريا الذين يدعمون التجمع بالنصيحة واقتراح الأفكار الثورية المفيدة للحي بشكل عام.

| ما هي آلية عملكم وكيف يتم التعاون بين الأعضاء؟

| | آلية العمل إن كان المقصود بها كيف يتم تنظيم الحراك الثوري داخل الحي فهي آلية عامة تهدف إلى العمل على استمرارية الحراك الثوري بالجانب الصحيح ويتم التعاون من خلال توزيع الجهود ليعمل كل في مكانه المناسب أو بما يخدم الثورة فمن الناشطين هناك المصورون والأطباء سواء الاختصاصيون منهم أو المتطوعون لإسعاف الجرحى ومسؤولو الإغاثة والمسؤولون عن توثيق الشهداء والمعتقلين وتقديم الدعم للعائلات المتضررة في الحي نتيجة الحملات الأمنية. كما أن نساء الحي لهن مشاركة واسعة في العديد من الأعمال سواء في المجال الطبي والحراك السلمي من أعمال ثورية سلمية وزيارات لعائلات الشهداء والمعتقلين والعديد من المجالات التي برز فيها دورهن بشكل واضح في ثورة الحي.

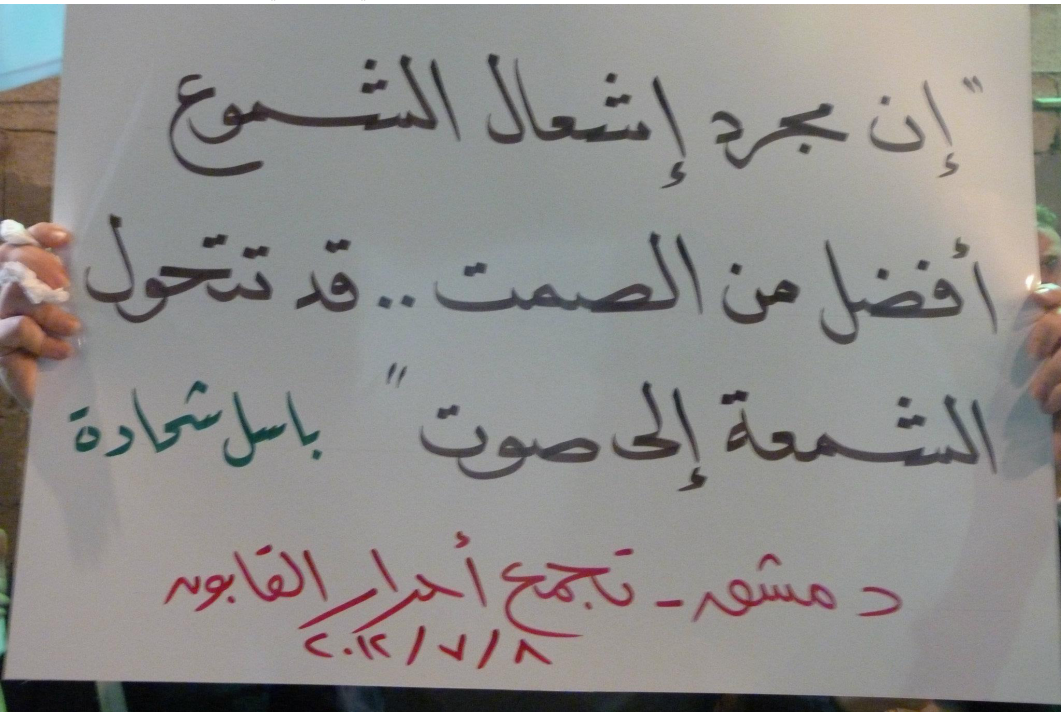

| مـا هو المصـدر الأساسـي لأخبار التجمع؟

| | مصـدر أخبـار التجمـع هـو الناشـطون الموجـودون داخـل الحي والذيـن هـم أصـلاً جـزء مـن الخبر نفسـه، كمـا أننـا نسـتمد الكثير من الأخبـار مـن أهالـي الحـي أنفسـهم والذيـن أصبحوا فـي حال حـدوث أي خبر مفاجئ يتواصلون معنا من خلال الرسـائل على شبكة الانترنت أو حتى الاتصال على الجوال.

| هل تهتمون بنوع معين من الأخبار (سياسية، عسـكرية، ميدانية) أم أنكم تقومون بنشر كافة أنواع الأخبار؟

| | يعنـى تجمـع أحـرار القابون بنشـر الأخبار الخاصة بالحي بشـكل عـام ويهتـم بالجانـب السياسـي والميدانـي ويشـارك أحيانا في نشـر الأخبار العسكرية وذلك حسب ما نراه ضروريـاً ومفيداً للحـراك الثوري في الحي.

| بالنسـبة للتعليقـات علـى الأخبار على صفحة الفيسبوك كيف يتم التعامل معها؟ هل يتم حذف التعليقات التي قد تتحدث بلغة لا تناسـب توجـه التجمع؟ هـل يتـم التحدث بشـكل خـاص لمن يكتب تعليقات غير مناسبة؟

| | إن كان الخبـر لا يحتوي على ألفاظ نابية أو كلمات تسـيء إلى زوار الصفحة يتـم التعامل معه في العلن والرد عليه بالتوضيـح لفحواه إن كان ذلك مطلوباً. وفي بعض الأحيان يتم التكلم مع الزوار بشـكل خاص لنصل معهـم إلـى تصحيـح الخطـأ إن كان هناك فعلاً خطأ مـا أو لتصحيح وجهة النظر التي يتكلمون من خلالها.

| هل هناك أي ناطق رسـمي باسـم التجمع؟ كيف تم اختياره؟

| | يوجـد ناطق رسـمي للتجمع وهو يتحـدث إلى الوسـائل الإعلامية المختلفـة باسـم عمـر القابوني. تم اختيـاره مـع انطـلاق التجمـع حيث كان الحـي يشـهد أحداثاً كبيـرة أثناء المظاهرات السلمية وسقوط الشهداء والجرحـى ممـا اسـتوجب أن نقـوم بإيصـال الحـدث ونقـل الصـورة من داخل الحي إلى العالم أجمع.

| هـل ينصـب اهتمـام التجمع على أخبـار القابون فقـط أم أنه يتجاوز ذلك للاهتمام بأخبار المناطق الأخرى؟

| | تجمـع أحـرار القابـون ينقل أخبـار الحي بالدرجة الأولى ويسـاعد المناطـق الأخرى في إيصـال أخبارها للإعـلام في حـال كانت هنـاك حاجة لذلك. يهتـم التجمـع بالدرجة الأولى بنشـر صـوت الحـق وفضـح أفعـال النظام الأسـدي بحـق أهلنا في كامل أرجاء سوريا.

| هـل واجهتكم أية صعوبـات أثناء عملكـم؟ هـل لكـم أن تحدثونـا عنها أكثر؟

| | بالتأكيـد واجهتنـا صعوبـات كبيـرة منـذ تأسـيس التجمـع. فقـد تعرض العديد من الأعضاء لملاحقات أمنيـة وتـم اسـتهدافهم بشـكل شـخصي، كما أننـا بذلنا جهـداً كبيراً لإقناع بعض الأشخاص بفكرة الثورة والهـدف مـن العمـل الثـوري الموحد وجذبهـم إلـى الحـراك الثـوري. أمـا بالنسـبة لبعـض الأمـور الضروريـة لعملنا فقد عانينا مـن إمكانية تأمين المسـتلزمات الخاصة بالحراك الثوري مـن أجهـزة الكترونيـة وتجهيـزات المظاهـرات (لافتـات، شـعارات، نشـاطات مميزة)، وقـد عملنـا كثيراً بهـدف تأميـن الدعـم لأهالي الأسـر المتضررة من المعتقلين أوالشهداء أو حتى المتضررين من القصف والدمار الذي تسبب به نظام الأسد في الحي.

| كيـف تحصلون على أنـواع الدعم المختلفة؟ (مادي وتقني واعلامي)

| | يتـم الحصـول علـى الدعم مـن جهـات فردية تحـاول الوقوف مع الثورة سـواء من خـلال الدعم التقني أو حتى المادي كمـا أننا نتلقى الدعم من جهات عامة تسـاعد كافة الهيئات الفعالة في المناطق المختلفة.

| مـا هي نقاط اختـلاف التجمع عن تنسيقية حي القابون؟ هل هناك تعاون بينهما؟

| | لا يوجـد اختلافـات جذريـة فهدفنـا واحـد إلا أن آليـة العمـل تختلف، فتنسـيقية حـي القابون ذات فاعلية ضعيفـة على الأرض نوعاً ما. وبالنسبة لنا فنحن نسعى دوماً للبقاء على اتصال مع جميع الناشطين سعياً لخدمة الثورة والحي أولاً وأخيراً.

| حدثونا عن أية نشاطات أخرى للتجمع.

| | نشـاط تجمع أحـرار القابون يركز بشـكل أساسـي على كل ما له ارتبـاط بالحراك السـلمي داخل الحي ابتـداءً مـن الأمور المتعلقـة بالاغاثة والمتضرريـن إلى تنظيم المظاهرات السـلمية وتوثيـق انتهـاكات الأمـن وتمثيـل الحي أمام الجهـات المختلفة المحليـة والعالمية إضافـة إلى أعمال الحرائر الثورية السلمية.

| كيـف تنظـرون لمسـتقبل التجمع بعد سقوط نظام الأسد؟

| | بالتأكيـد نحـن نأمـل في أن يسـتمر التجمـع إلـى ما بعد سـقوط الأسـد، خصوصـاً أننـا علـى يقيـن بـأن الجهد الأكبـر هو الـذي علينا أن نبذلـه بعـد سـقوط النظـام وليـس الآن. مسـتقبل التجمع بعد السـقوط سـيكون بتحقيـق الاسـتقرار لأهالي الحي ومسـاعدتهم في نشـر التوعية الثقافية والسياسية والنهوض بالحي ليكـون أفضل من ممـا كان عليه في عهد النظام الأسدي بإذن الله.

قصة الشهيد البطل عهد مسلم الغربي

عهد يا رمز العزة من نورك ضوت برزة

تجمع أحرار القابون

عهد وكان للعهد الذي اقسمه مليباً فـي درب الثورة والحرية ثائرا ابن الاثنا وعشـرين عاما أنهى خدمتـه الإلزامية قبل ثلاث أشـهر من بدأ الثـورة ليكون من أوائل المشـاركين في ثورة الحرية والكرامة حيث شـارك بهـا بكل طاقاته ورفـض مطالبـات الأهـل لـه بمغادرة البلـد حرصاً على سـلامته وكان يقول دائما (ما بيصير غير اللي كاتبو ربك).

وإن مـررت بحـارات حـي برزة الدمشقي العريق تسمع من حجارته السـود صرخات قاشوشها تدوي في السماء الدمشـقية ترى من الحجارة تلك الأيام الخوالي في ساحة الحرية عندمـا كان عهـد يعتلـي المنصـة يعانق نسمات الحرية متوشحاً بعلم الثورة يصـرخ بصوتـه: بدنا أصابع نصر نرفعها فوق القصر..

يقف مـن حولـه أطفـال الحي يهتفون ينظرون إليه بتمعن لعلهم يسرقون من لهيب الثورة في عينيه قبساً ينير درب مستقبلهم..

عهـد يزين سـاحات الحرية في دمشـق يخرج من مظاهرة برزة إلى حي القابون المجاور ليشـارك رفاقه فـي الهتـاف والغناء لأجـل الحرية.. لم يبتعـد يوما عن درب الحرية فقد اختار أن المضي قدما ليسـطر أروع حكايات البطولة.

عهـد الشـاب الطمـوح الحالـم بوطـن حر لم يتوانى عن مسـاعدة أهلـه وإخوانه فألمه القصف العنيف علـى حـي القابـون دخـل ليسـاعد الأهالـي وتقديـم يد العـون لهم و ليحمي شـرفهم وعرضهـم فتوجه هـو ومـن معه ليبلـوا نـداء الأخوة، وسطّر أروع الملاحم البطولية..

عهـد ابـن سـوريا لبّـى نـداء ربه ليرتقي شـهيداً ليلحـق برفاقه الشـهداء في الجنة.. سيبقى صوته نبراسـاً نسـتضيء بـه فـي درب الحريـة.. فاضـت روحـه الطاهـرة نحو السـماء بتاريخ 21 / 7 / 2012، لتروي دمائه الطاهرة أرض القابون فيعبق الحي برائحته الزكية ويكون عهد على العهد الذي ما يزال الحيين الدمشقيين (برزة والقابون) يدا بيدا في ثورة الياسمين..

سوريتنا تحاور صفحاتها

■ أسرة التحرير

بعد عام في حضرة الحرية وحضرة سوريتنا، جلسنا وسألنا أنفسنا وبعضنا عن الكثير من الأشياء، عن أمور فاتنا الحديث بها وأخرى كنا نعتقد أننا نسيناها، إلا أن الذاكرة الجميلة لا تغيب، وأشد اللحظات تألقاً هي اليوم أكثرها حضوراً في الذاكرة.

| كيف رأت سوريتنا النور؟ وكيف كانت اللحظات العصيبة لصدورها؟

| | تقول سعاد: "في يوم أيلولي منعش اتصل بي جواد وطلب أن يراني بشكل مستعجل. جلسنا في منزل في دمشق القديمة مع مجموعة من الأصدقاء وأخرج جواد من ظرف بني اللون مجموعة من الأوراق وضعها أمامنا. "حلمي الجديد. ما رأيكم؟" ذهلت مما رأيته. اثنتا عشر ورقة بتصميم جميل واسم عشقته بمجرد أن وقعت عيناي عليه. "أتودين أن نعمل معاً وأن تكون سوريتنا لي ولك وللجميع؟". "وهل يحتاج ذلك إلى سؤال؟""

كانت كتلك اللحظات التي نشهد فيها مولوداً جديداً لا نعلم تماماً كيف سيكون شكله عندما يكبر لكننا نتلهف لرؤيته وكل يوم نراقبه: ماذا كبر فيه؟ هل تغير لون عينيه؟ وكيف سيكون عندما سنستيقظ في اليوم التالي؟

بدأنا بالعمل يوماً بعد يوم وكانت لنا الكثير من الجلسات والمباحثات والتي عملنا فيها على تحديد هوية الجريدة ومضمونها وزواياها بشكل أكثر وضوحاً ودقة. بالتأكيد كل ذلك تطور مع مرور الأيام وتوالي الأعداد وكثيراً ما عملنا على إضافة زوايا جديدة بعضها لم يستمر حتى الآن وبعضها لا زال موجوداً حتى هذا العدد. الصفحات ازدادت وقمنا بالعمل على ملحقين خلال هذه السنة وشارك معنا في العمل الكثير من الأصدقاء والصحفيين.

من أكثر الأمور التي عانينا بسببها في بداية عملنا كان تأمين مكان كي نجتمع فيه، خوفنا من الملاحقات الأمنية، رغبتنا بأن نقوم بطباعة الجريدة بشكل أسبوعي ونشرها بشكل أوسع واستحالة ذلك بسبب الظروف الأمنية وعدم توفر الدعم الكافي لذلك.

| بعد مرور عام، كيف هي؟ هل هي كما حلمنا بها؟

| | هي اليوم أجمل، أنضج، تعبر عن فريق العمل بشكل أقرب إلى قلوبنا وأفكارنا وعقولنا وما نحلم به ونعيشه كل يوم.

بالتأكيد لا زالت لدينا أحلام أكبر لسوريتنا، ونعلم تماماً أننا سنحقق كل ما نريده لها مع مرور الوقت ومع نضوجها أكثر فأكثر.

| هل فكرنا يوماً بإيقاف الجريدة؟

| | "منذ عدة أشهر راودتني هذه الفكرة، تقول سعاد، وطرحتها على فريق العمل. كانت لحظات عصيبة، عدة أعضاء من الفريق اضطروا للتوقف عن العمل بسبب ظروف شخصية أو أمنية. الفريق تقلص كثيراً ليقتصر على ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط وأخذ العمل يزداد صعوبة يوماً بعد يوم. أحسست للحظات بعدم جدوى الاستمرار في ظل الضغط الهائل الذي نرزح تحت وطأته، إلا أن إصرار من تبقى وبشكل خاص "ياسر" على المضي في العمل وإعداد المواد في وقتها، كان السبب الأساسي لاستمرارنا.

يحب جواد أن يتذكر دوماً دور ياسر الأكثر أهمية في تلك الأيام "لولا إصراره على العمل وكتابة مواده بشكل أسبوعي دون توقف لما كانت لنا القدرة على الاستمرار حتى الآن وبلوغ ما بلغناه اليوم".

أيضاً كان دور شام في الوقت الذي بردت فيه الهمة وأصرت على الاستمرار وكانت دائماً المحرض دائماً على العمل والاستمرار بأي شكل كان..

| ما هي أجمل محطات سوريتنا وأصعبها؟

| | نذكر واحدة من أجمل اللحظات منذ عدة أشهر: "عندما تواصل معنا أشخاص لا نعرفهم في حمص وأخبرونا بأنهم يقومون بطباعة وتوزيع حوالي 500 نسخة من الجريدة أسبوعياً".

أما عروة فيقول: "أعتقد أن أجمل المحطات هي بداية إنشاء الجريدة، كان ثمة مشاعر نختبرها للمرة الأولى وكانت الثورة في أجمل مراحلها. لم يكن العنف بهذه الوحشية التي نشهدها، وكان ثمة مساحة من الحركة التي تتيح لنا النقاش والتفكير كأسرة تحرير في الجريدة. أعتقد أن بدايات الجريدة كانت أجمل الأيام التي عشتها في الثورة فقد كنا نشهد ونساهم في صناعة حلم تطلب الكثير من الوقت ليتحول إلى حقيقة.

أما الصعوبات فقد واجهتنا دائماً ولم تتوقف. من أصغر التفاصيل حتى أكبرها. وكان تحدياً دائماً لنا أن تخرج الجريدة في مثل الظروف السيئة التي نواجهها لكن ما هو ثابت أننا استطعنا التغلب على جميع المشاكل بدليل أن الجريدة مستمرة حتى هذه اللحظة وها نحن نحتفل بعامها الأول".

| ما هو النقد الذي توقفنا عنده طويلاً؟

| | النقد المتعلق بطبيعة الأخبار التي نقوم بنشرها. بسبب صعوبة عملنا، وعدم وجود أي دعم مادي حتى الآن لم تكن لدينا القدرة على إيجاد فريق متخصص للعمل على التقارير الإخبارية بشكل أكثر احترافية، كي لا نكون مضطرين أحياناً للاعتماد على أخبار من وكالات أنباء عالمية كمصدر لأخبارنا الأسبوعية. بالإضافة إلى أننا لا نقوم بالتركيز على الأخبار اليومية وإنما نهتم أكثر بالقضايا الإنسانية التي تمس المهجرين والنازحين واللاجئين والمدن وما إلى ذلك، أي الجانب الإنساني لأخبار الثورة وأخبار سوريا، ربما بسبب كل هذا كانت هناك بعض الإشكاليات في تسمية الباب المتعلق بذلك "أخبارنا".

| كيف استمرت سوريتنا طوال سنة كاملة متواصلة بدون دعم؟

| | إصرار فريق العمل والدعم المعنوي الذي كنا نتلقاه سواء من الأصدقاء أو المتابعين للجريدة كان السبب الأساسي والدافع المعنوي الأهم في استمرارنا.

| كيف هي علاقة أفراد فريق العمل ببعضهم؟

| | نحن فعلاً فريق. لا رئيس عمل ومرؤوسين في سوريتنا فالعمل مشترك وهو ملك الجميع. لكل وظيفة محددة والقرارات تتخذ بشكل جماعي سواء التي تتعلق بالسياسة التحريرية أو اختيار المواد أو انتقاء المواضيع التي نود الكتابة عنها. هناك بعض الحالات الاضطرارية والتي لا يكون هناك بد من اتخاذ قرار فردي فيها بسبب ضيق الوقت أو فقدان إمكانية التواصل مع بعض الأعضاء إلا أنها حالات نادرة.

| أمام تعدد وسائل الإعلام في الثورة، ما هي هوية سوريتنا؟

| تحاول سوريتنا أن تحكي عن الناس، عن أحلامهم الصغيرة وقصصهم، ذكرياتهم عن سوريا قبل البعث وكيف يتمنون أن تكون بعد سقوط النظام، فلسوريا تاريخ عظيم همشه حزب البعث طوال أكثر من أربعين عاماً من الحكم المستبد، وسوريتنا تحاول إحياء هذا التاريخ. وكما أن التاريخ ملتصق بواقعنا الذي نعيشه اليوم، تحب سوريتنا أن تنقل كل ما يعيشه الناس اليوم بعد بداية الثورة ومعاناتهم اليومية مع قسوة ووحشية النظام، وإصرارهم على المضي في حلمهم حتى الرمق الأخير.

| ما جدوى الاستمرار في سوريتنا؟

| | وكأننا نقول ما جدوى الاستمرار في الثورة.. ثورتنا انطلقت بعد صمت وانتظار دام سنين طويلة، وسوريتنا هي تبلور لحلم راودنا طويلاً. استمرارنا فيها هو انعكاس لقدرتنا على الاستمرار في الحلم بالحرية، بالعمل والتنفس رغم كل ما نواجهه من مصاعب ومخاوف.

| ترهقنا سوريتنا أحياناً. علينا العمل في الكثير من الأمور وسوريتنا هي المشروع الوحيد الذي لا قدرة لنا على التخاذل فيه.. لماذا؟

| | ربما لأنها الأقرب، والأكثر تعبيراً عما أردناه حينما خرجنا في الثورة وطالبنا بالحرية. الكتابة هي الوسيلة الأكثر التصاقاً بنا، وبالشارع، وبقدرتنا على البوح بمكنونات أنفسنا وسط كل هذا الضجيج وتسارع الأحداث وصوت المعارك الذي أصبح غالباً على كل ما هو حوله. لا تزال سوريتنا هي متنفسنا وملاذنا كي نرفع صوتنا عالياً ونقوم بإيصال حكاياتنا وحكايات كل من حولنا إلى أكبر قدر ممكن من الناس.

| أين ستكون سوريتنا بعد عام، عامين أو أكثر؟

| | بعد سقوط النظام ستتحول سوريتنا إلى مؤسسة إعلامية مرخصة لها مكاتبها الخاصة، تصدر وتطبع وتوزع بشكل أسبوعي إن لم يكن يومي. نحن لا ننظر إلى سوريتنا على أنها مرتبطة فقط بالثورة، هي وليدة الثورة وستستمر وتنعم بثمار الثورة والحرية التي مهما طال زمن مخاضها إلا أننا نعلم أننا سنرى ولادتها عما قريب.

عام في حضرة الحرية

■ شام داود

كم تعجز الحروف عندما يتعلق الأمر بصياغة تجربة، بضعة أسطر في عام عن صفحاتنا، هذه الصفحات التي تمدنا نحن محررون وكتاباً ومنسقين ونشطاء بجرعة الحياة الضرورية لاستمرار الأمل.. هل تصلح تسميتها بتجربة أم أنها حرية لم نختبرها بعد.

منذ عام عندما قررنا أن للكلمة حد الثورة وأن لا ثورة في بلد ما دون أوراق توثق ومقالات تتوالى بما يليق بمقام ثورة الحرية..

لم نكن نعلم أين سنكون بعد عام، كنا نحلم بأفق أكبر منا، تحمله هتافات سوريتنا الحرية، ويهدهُ رعب الاكتشاف..

يقال دوما أن للكلمة مجال الأفق، لا حدود للحلم، ولحرية التعبير رواد لا تنام.. بالرغم من ذلك وبالرغم من ذلك تبدو الكتابة أصعب من نكسة..

حتى ما سمي في الكتب حرباً يبدو ممحياً غير مقروء في همجية السوري ضد السوري، مسلحاً كان أم ناشطاً أم مسعفاً أم مجرد عابر سبيل عائد إلى ذاكرة منزل عله يجده مكانه..

تبدو الكلمة متعثرة بينما أصوات القصف تتردد وراء الجدران وكأنها تذكر بحتمية الموت قبل الربيع المنتظر...

كيف يمكن لنا أن نختصر عاماً من سوريتنا في مقال، في بضعة أسطر..

يوجد الكثير مما يمكن الكتابة عنه، ليس أقلها موت كتاب الحقيقة من صحفيي الشارع وماذا نكتب أيضاً وقد طالت يد الغدر والإعدامات الميدانية حتى من كانت صلة الرحم أيضاً حكمها موت يتخطى حدود العدل والقصاص والمنطق.

أم نكتب عن شعب سوريتنا.. هل من الواقع أساساً تسميته شعباً، أما بحت حناجرنا من نقاش عدم وجود الدولة من أساسه، ألم نتعب من الاختلاف. ألا نخاف من مستقبل تبدو ملامحه اليوم شديدة الرمادية لدرجة الاختناق..

منذ عام قلنا - قال بعضنا - أننا من شعب مقلتيه لم تعد تعكس ذل القهر.. منذ عام ونصف صعد أول شهيد سوري معلناً الولادة، كنا هناك ولم نزل نحلم بتلك الصرخة الأولى، كان فرح الولادة كان فرح سوريتنا أيضا..

عام على الجريدة، عام تغير فيه الكثير، اشتد عود الثورة واشتد عودنا معها، في الشارع يتحدثون، يصرخون، يشتمون أيضاً.. جميعاً لأول مرة من زمن.

في الشارع: تولد السياسة، تولد الطوائف، تولد الاختلافات والألوان، بكم جديد وبعفوية أكبر، ثورتنا، سوريتنا مليئة بأخطاء الطفل الذاهب إلى المدرسة، العين التي تبصر، كما الشارع، كما السوريون في كل مكان في الداخل السوري وفي خارجه، في المغترب، في مرارة الهجر، في المخيمات العابقة بالألم وأمل النصر، حتى في حقد وغضب وخوف التغيير، يوجد في كل منها ولادة ما، تعلن بداية ما.

من الشارع وإلى الشارع نعود، من الألم وحتى الألم، تستمر الرغبة في الحياة، هل أمامنا من خيار سوى الحياة، وهل أمامنا من سطوة الكتابة سوى العودة دوماً إلى ما بدأنا به كل يوم من جديد.

قيل أحياناً أن صفحات بعض الكتاب تنضح تفاؤلاً وأين منا كل هذا الظلم المقيم؟. هل يمكن لنا أن نستسلم اليوم ونحن في حضرة الأغنية الأعذب.

سوريتنا، لي ولنا، حياة كاملة، قد نكون صغاراً، لكن يجمعنا أمل، قد نكون غضين كزهرة تتعلم لغة لم تفهمها بعد، قد يقال عنا أننا لسنا صحافة.. أننا لسنا قصصاً تحكى، أننا في ثورة لم تنضج بعد على خط البداية.

سوريا.. عام ونصف على الانتفاضة الشعب السوري لنيل حريته.. عام على سوريتنا، أين نحن الآن من عفوية اللحظة الأولى.

الحقيقة التي لا تخفى على قلوبنا أن الكتابة لا تموت، في حضرة الدم تولد الكلمات، وفي حضرة الحرية يولد الأمل ويولد الإبداع، قد لا نرقى إلى مستوى اللحظة، قد لا تكفي أرواقنا الهشة عزاء موتى الحرية.

لسنا أنقياء وليس شعبنا إلا كأنشودة تريد قراءةً وفرحة بقاء، فرح سوريتنا يغلفها حزن الثمن الأليم الذي يدفعه أبناؤها اليوم، فرح مقيم في ثورة يجمع الكون على محي حروف ثورتها ويعيد أبناؤها كتابتها حرفاً حرفاً بعد كل غسق..

في حضرة الدم لا خيار لنا سوى الحياة..

كتب إيلوار مرة "ليس لليأس أجنحة" وعندما نضع الحرية نصب أعيننا، عندها يصبح اللون الأحمر شهيداً وحمامات سلام.

على الأقل هو أملنا، ندرك اليوم بعد عام أنه لا يمكن لنا الرجوع، يمكن لنا المراجعة والعودة إلى بعض الأماكن، يمكن لنا أن نعيد اكتشاف الحرية ومعناها الغائب مطولاً عن فكر وروح سوريتنا التي نريد، لكن الرجوع ليس ممكنا، أو يمكن لنا العودة إلى ما قبل الحرية، في حضرة الحرية، يصبح الكلام لزاماً، يصبح الهتاف كأغنية القمح، وتغني سوريا لدولة ستولد فينا وبنا من جديد..

لشهدائنا، لمهجرينا ولمعتقلينا، لكل من عاش فينا، لكل ما حفره فينا الأمل خلال عام، لسوريتنا التي نريد، لنا وبنا... كلمة حرية.

فلن نكون إلا أحراراً..

الثورة أيضاً تحقق الأحلام

■ عروة المقداد

إلى جواد أبو المنى

بعد أكثر من عشر سنوات وجدت ذلك الشاب ذو الشعر الأشقر والعيون الرمادية، المتحمس دائماً. كنت حينها أكتب الشعر، ظناً مني أنني سأفك به طلاسم هذا العالم. التقيته في مقهى الروضة ولم أتجاوز بعد الخامسة عشر من عمري. وكان هو في حدود الثلاثينيات. وكانت دمشق غارقة في سكونها الاعتيادي. الزمن لا يمر في تلك المدينة والمثقفون والفنانون يجترون الأمجاد الغابرة في حجارة النرد بحثاً عن حظ عاثر ينجيهم من مأزق الملل الوجودي. تحدثنا عن الشعر والسياسة، وقد اكتشف فيّ، على ما أذكر، شاعراً مهماً. أعتقد أنه تبناني في تلك الفترة، ليس بالمعنى الفني بل بالمعنى الإنساني. كنت حينها كثير الهرب من المنزل، أبحث عن مغامرات التسكع في شوارع دمشق كريفي يلتقط عطور الفتيات ويتنهد على أغاني محروس الشغري في السرافيس.

التقيته ذات مرة على عجلة، وكان وجهه قد تهالك واصطبغ باللون الأحمر. وتقطر الألم والخوف من أنفه النحيل، الذي كان يشق الهواء بخجل ويغري الكثير من الفتيات. قال لي «أعتقد أن المخابرات سوف تعتقلني». لم أفهم بالضبط حينها لماذا سوف تعتقله، ولكن أذكر أنه قال لي شيئاً ما يخص إعلان دمشق... بعدها بعدة أيام فقدت الاتصال به تماماً.

عشر سنين مرت ولم أتبدل. ظللت ذلك المراهق الذي يفتح المدينة بسرفيس أبو حدو، ويدخلها فاتحاً كصعلوك. لكنني تركت كتابة الشعر. اكتشفت أنني شاعر فاشل وأن الفتيات لا يحببن الشعراء، الرومانسيين منهم على وجه الخصوص. وتعويضاً عن ذلك رحت أكتب القصة، قصص خيباتي المتكررة في هذه المدينة البغي. لم أكن أراها سوى مدينة بغي تتاجر بأجساد أبنائها.

اندلعت الثورة، وكنت عائداً من درعا متجهاً إلى قهوة الروضة، بعد أن فقدت الأمل بأن أتدبر مكان منامتي. سرت مدهوشاً في الطرقات وأنا أفكر، كيف من الممكن أن تكون الحياة طبيعية في هذه المدينة وعلى بعد 150كم ثمة عشرات الشهداء يسقطون ومئات الجرحى؟ كانت درعا تشهد ولادة الثورة على أشدها وتقدم الشهيد تلو الشهيد.

إنها أكثر الصدف الدرامية التي شهدتها في حياتي. مر من جانبي كأي شخص عادي. في كثير من الأحيان أقول أن ما حدث قد فر من فيلم ما كنت قد شاهدته في طفولتي. نظر إلي بطرف عينه عندما أصبح بجانبي تماماً ورمقني بنظرة سريعة. وبعد عشرين خطوة بالضبط التفتّ إلى الوراء، وكان هو قد التفت إلى الوراء ونظر نحوي أيضاً. خلع نظاراته وقال لي «عروة»!..

جلسنا في المقهى بعد أن انهالت علينا الذكريات المتراصة كحائط. حكى لي سبب اختفائه المفاجئ، قال لي: «داهمت المخابرات منزلي ودسو لي ما اعتقلوني لأجله في المنزل». تودعنا بعد حديث طويل، واتفقنا أن نلتقي لنكمل ذلك الحدث الطويل الذي كانت فيه المشاعر مثل إبر تخيط الروح وتصلح ما أنفتق منها.

اتصل بي في الصباح الباكر ليقول لي أريد أن أتحدث معك في موضوع ما. التقينا في باب توما وكان يمسك بمغلف ورقي. جلسنا في الحديقة المطلة على النهر. كنت أعلم أنه سيخبرني عن أمر ما يتعلق بالثورة. ومن بعدها أخذني إلى منزل عربي قديم في دمشق القديمة وأثناء الطريق رحت أتحدث له عن حماقاتي المتكررة التي ما انفككت أرتكبها منذ بداية الثورة، كان البعض يراها شجاعة، لكنها لم تكن سوى حماقات مراهق كبر فجأة. وهو يعلم ذلك، ويبتسم، لكن ما الحل.. وأنا ابنه الروحي؟

في المنزل العربي وجدت مجموعة من الأصدقاء. كنت أعرف بعضهم وتعرفت على البعض الآخر. جلسنا وراء طاولة خشبية. راقبنا بعينيه الدافئتين، ومن ثم أخرج من المغلف مجموعة من الأوراق المخروزة على شكل كراس ووزع لكل واحد منا نسخة. كانت الأوراق هي العدد الأول من جريدة سوريتنا المطبوعة وكان قد عمل على إنجاز العدد الأول بأكمله.

كان ذلك منذ عام، وهو اللقاء الأول لأسرة تحرير جريدة سوريتنا الذي حددنا فيه سياسة التحرير في الجريدة. كنا مجموعة من الشباب السوريين من مختلف الأماكن والمشارب، يجمعنا بكل رومنسية... حب الوطن والثورة! وتوالت الاجتماعات والنقاشات، وتوالى إصدار الجريدة بالرغم من المضايقات التي تعرض لها بعض من أفراد أسرة التحرير وهروب البعض الآخر.

مر أحد عشر عاماً على كل تلك الذكريات، ومنذ ذلك اليوم الذي التقيته كنا نحلم بأن يكون لدينا قدرة على إنشاء جريدة ... حلم قد حققته لنا الثورة.

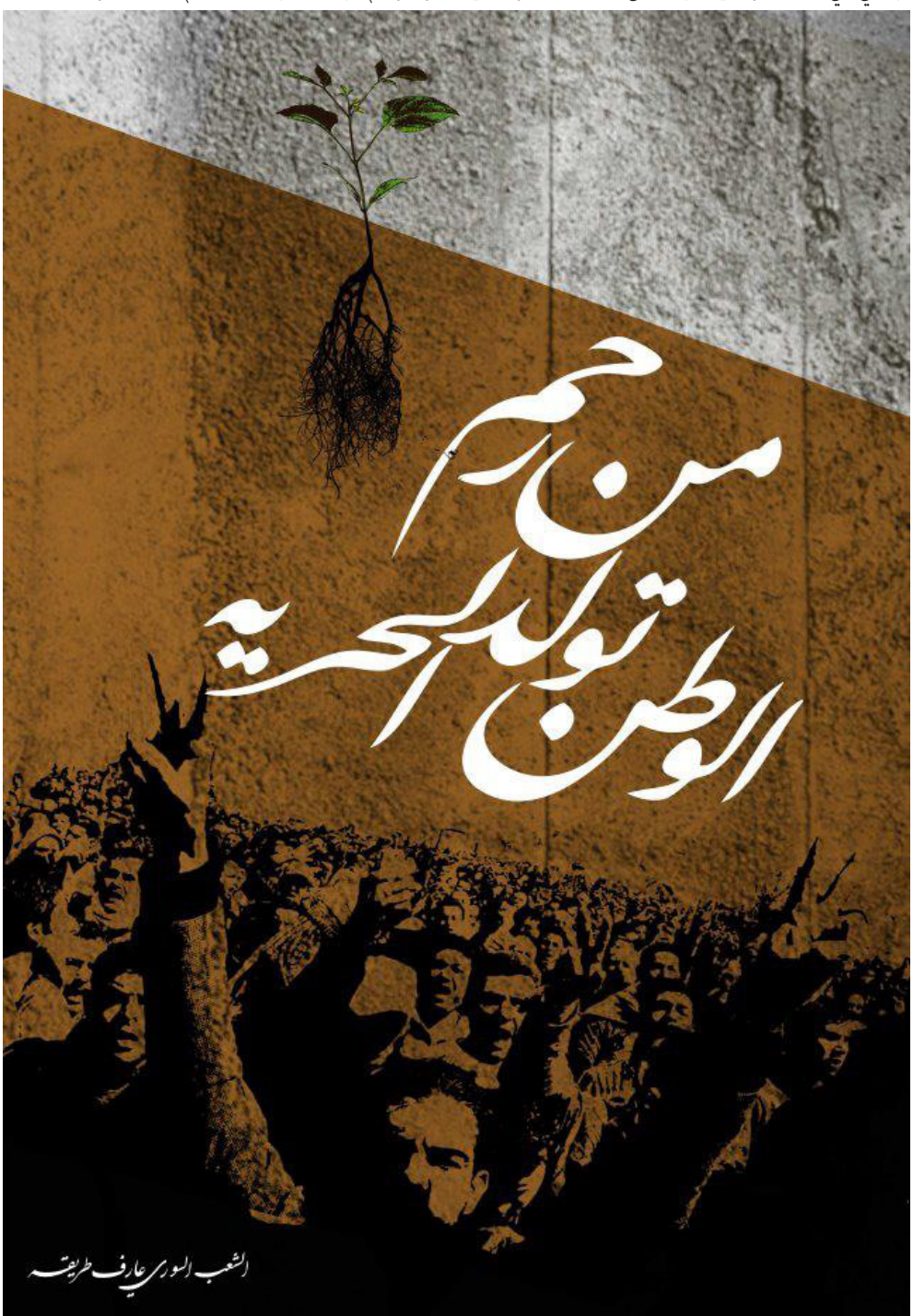

صباح الخير.. سوريتنا

■ يوسف عكاوي

تستحق "سـوريتنا" أكثر من احتفال، كان يمكن له أن يكون حافلاً ورائعاً ومليئاً بالأضواء لو أن السماء كفت عن إرسال الطائرات لبعض الوقت. وعلى الأرجح لن يتسنى للجريدة اليوم أن تحتفـل، فلا شـك أن لديهـا مهمة عاجلة تتلخص في أن تصل إلـى آخر بيت، خيمة، أو رصيف. هي الجريدة المثابرة منذ يومها الأول، والتي لم تتأخر ساعة عن الصدور، لم تخذلنا، كانـت دائماً على الموعـد، بكامل حلتها، من الصـورة والمانشـيت اللمّـاح إلـى عقد من الأسماء الأنيقة التي تزين صفحاتها.

إذا أراد المرء أن يطمئن إلى المستقبل ما عليـه إلا أن يلاحظ "سـوريتنا"، حيث المثابرة التـي لا تكتـرث لشـيء. جريـدة تصـرّ على القول إن الغد ممكن، وإن الماضي ليس قدراً مكتوبـا على السـوريين. جريـدة تصرّ على الاحتكام لصوتها، وهـل هنالك أجمل من أن يصغي الصحفي إلى صوته هو، لا إلى متسلط وصوت رقيب؟

لم تشـهد البـلاد من قبـل صحافة حرة، عقـود طويلة مـن الصحافة الرسـمية، تلتها صحافة خاصـة مزعومة، مصاغـة على قياس الصحافة الرسـمية، أو ربما أقـل. ولذلك فإن صحافة حرة ومستقلة وتنتمي حقاً إلى الشارع سـتكون هي الفارق الأساسي بين زمنين. إذا لم تشـكل الصحيفة فارقاً فكأننا ما زلنا هناك، فـي عهود ما قبـل الثورة، أما وقـد صار لدينا صحافة أخرى، تصرخ بأعلى صوتها، وبأجمله، فلا شك أن خطوتنا باتت في المستقبل لا في الماضي.

لقد حققت "سوريتنا" حلماً، لا بد أن كلاً منا كصحفيين داعبه مراراً، كما أنها أخجلتنا مراراً في تقدمها ووثوقها وجرأتها ومغامرتها.

كم خشينا على طفلتنا الصغيرة هذه، على "سـوريتنا"، من أن نصحو ذات أحد ولا نجدها علـى صفحاتنا، غير أنها ظلـت تعاند، إلى حد أننـا لم نعـدّ لها الأيـام، إلـى أن باغتنا عيد ميلادها الأول. هل حقـاً بلغتْ عاماً كاملاً من عمرها؟ صـارت صبية إذاً، بعمر أمها "الثورة"، حرة مثلها، عنيدة، وخطاها في المستقبل.

صباح الخير "سوريتنا".

الصخرة التي نبني عليها صحافتنا المأمولة

■ آكاسيا العاصي

لطالما حلم الصحفي والكاتب السوري بمنبر حر يمكنه من قول رأيه بوضوح دون الاضطرار للتواري خلف عبارات فضفاضة تحتمل الكثير من التأويلات، منبر يتواصل من خلاله مع مجتمعه وأهل بلده ليسمع آرائهم وينقل همومهم.

هذا الحلم ما كان ليتحقق بحده الأدنى لولا ثورات الربيع العربي، وانطلاقة ثورة شعبنا العظيم، حيث جاءت صحافة الثورة تحقيقا لهذا الحلم العزيز على قلب كل صحفي سوري خبر معاناة الكتابة في ظل الدكتاتورية، في صحف رسمية أو شبه رسمية تديرها الأجهزة الأمنية، والتي تحولت بمجملها في العقد الأخير إلى صحف مأجورة مهمتها ترويج السياسات الاقتصادية الفاشلة، وتسويغ الفساد وتمرير الصفقات المشبوهة وتلميع طبقة الأثرياء الجدد والتغني بالانفتاح الكاذب.

واقع أورث الصحافة والإعلام السوري أمراضاً مزمنة، وقف إزاءها الصحفي السوري أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الانخراط في لعبة المال والفساد وجني ما يتساقط عن موائد رجال الأعمال، أو الانكفاء والاستعاضة عن الكتابة الصادقة بثرثرة تافهة وتهويمات عائمة حرصاً على لقمة العيش وسلامة الرأس. وكان الخياران انتهاكاً لحرية الصحفي كإنسان وللصحافة بوصفها سلطة رابعة.

ويمكن القول عندما صدرت جريدة سوريتنا ضمن القافلة الأولى من صحف الثورة، مثلت مع زميلاتها وعدا جادا برد الاعتبار للصحافة السورية الحرة بعد خمسة عقود من التغييب القسري. لكن التحدي الأكبر أنها جاءت في وقت بدأ العالم يدير ظهره للصحافة الورقية (التقليدية) فترتب عليها أيضاً إعادة الاعتبار للصحافة المكتوبة، بأن تكون تمثيلاً لضمير وروح الثورة وهويتها لا مجرد ناقل ومحلل لأخبارها. وخلال عام تمكنت صحف الثورة لاسيما سوريتنا أثبتت أنها المعبر الأكثر رسوخا عن مدنية الثورة، والتزام شبابها وجديتهم.

ولعل المواظبة على الصدور دون انقطاع رغم ظروف النشر الشاقة والعمل السري بما يكتنفه من خطورة، ينم عن إيمان أسرة التحرير العميق بأهمية دور الصحافة المكتوبة في الثورة، وتكريس أدبيات واحدة من أكثر المهن التي تعرضت للتقييد والتهشيم في سوريا لأكثر من نصف قرن. ويحسب لهذه الصحف الوليدة خروجها عن القوانين المحلية الجائرة وانتزاع مساحتها الحرة انتزاعا، وبالوقت ذاته احترامها لتقاليد وأعراف ومواثيق الصحافة العالمية من حيث الرصانة والحس الرفيع بالمسؤولية، على الضد من صحافة النت الناشئة في كنف الثورة، ومدونات الوافدين إلى عالم الكتابة من كل حدب وصوب.

كما لا نغفل تحرر هذه الصحف الغضة من سلطة المال السياسي، التي تلقي بثقلها على العمل الإعلامي الثوري عموماً وبالأخص القنوات التلفزيونية التي انطلقت خارج سورية، إذ أن قلة قليلة جدا من تلك القنوات ممولة من قبل سوريين وتمتلك خطابا جامعا لكل السوريين. إذ لدى غالبيتها أجندات يفرضها المال السياسي تحت يافطة دعم الثورة. الظاهرة التي تتطلب بالضرورة وجود إعلام وطني مستقل جامع للحد من استباحة الإعلام الثوري، لاشك أننا نرى بعضاً من ملامحه في صحف الثورة، على الرغم من طراوة عودها وتعثر خطواتها، فما أظهرته لغاية الآن من التزام بالمعايير الاحترافية والتحلي بالمصداقية، قدمت نموذجاً ـ إذا توفرت له البيئة الديمقراطية الصحية ـ كفيل مستقبلا بحماية مهنة الصحافة من الاستسهال والابتذال والتمييع في تداول المعلومات وبث الشائعات وخلط الحابل بالنابل على صفحات النت ومواقع التواصل الاجتماعي جراء فوضى التدفق المنفلت للمعلومات.

وتجنبا للمبالغة، نكتفي بالقول إن هذا النموذج قد رسم خط أمان في العمل الصحافي السوري، إن لم نقل انه وضع اللبنة الأولى في التأسيس لإعلام سوري حر مؤهل ليكون سلطة رابعة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. علّ وعسى أن نتمكن من إزالة تشوهات خمسة عقود من الصمت والإقصاء، مما يحتم أيضا على الصحافيين السوريين في بيئة الثورة دعم ورعاية هذه التجارب والمشاريع الفتية بكل الوسائل لتكون الصخرة التي نبني عليها صحافتنا المأمولة.

مبروك لسوريتنا عامها الأول.

فلسطين وسوريا..
خطى مجدولة على دروب الحرية

■ فدوى روحانا

كلما حاولت الكتابة عن سوريا أشعر بالخوف، رغم أنها ليست المرة الأولى التي أكتب بها لسوريتنا، لكن تدفق شهداء الشام كان كما النهر في عزم تياره جارفا وساحقا وصادما، يتركك مصعوقا ومعقود اللسان، وهل بوسع الروح أن تنطق أمام ثلاثين ألف شهيد..

وأي مصداقية يوجد للغة وفي السجون يرقد الآلاف والآلاف من السجناء السوريين الذين قمعت واغتيلت لغتهم..

وإذ أقف الآن على أعتاب الأبجدية وأحاول برعشة أن أنتقي للثورة السورية مفردات تليق بها أشعر برغبة شديدة بمخاطبة هؤلاء الغائبين من الشهداء والمعتقلين الذين لن يقرؤوا حروفي ولن يسمعوا صوتي، وقد تكون تلك محاولة لاستحضارهم، رغم أنف الموت ورغم أنف السجان ورغم أنف الطاغية ورغم أنف الممانعين الذين غيبوهم عن ضميرهم ويحاولون تغييبهم عن وعينا بما امتلكه خيالهم من زيف وما نسجته أيديولوجيتهم المعطوبة من قصص المؤامرة والمندسين والعصابات المسلحة

دائما في الحديث عن سوريا تكون فلسطينيتي حاضرة جدا، كيف لا والأرض تعانق الأرض والسماء تلامس السماء والغمامات هائمات في انسجام تام ما بين السمائين، كيف لا وكل ما فيكم يذكرنا بنا فصور الأبيض والأسود للمأساة الفلسطينية منذ بدايتها تبعث الآن حية بألوان سورية..

ولو أن الموقف الفلسطيني العام لم يكن بحجم الملحمة التي تخطونها، وإحساسنا بكم لم يكن بحجم معاناتكم، نحن الذين عرفنا المعاناة منذ ولادتنا، نحن الذين أدركنا معنى الوحدة، تركناكم في وحدتكم تعانون

فبيننا هنالك، وللأسف من ما زال عاجزا عن رؤية وجوهكم، رغم الدماء التي اكتستها لحظات الرحيل، رغم ارتسامها بعمق الأحمر على صفحات نهاراتنا وعتمة لياليا، بيننا من لا يسمعكم رغم ارتجاج الزنزانات بأنينكم

بيننا من لا يأبه لرحيلكم، ما دام النظام باق ليشبع فانتازيا الممانعة التي يحيي بها رغم موتكم

بيننا من وقف من ثورتكم موقف المدين كونه ما زال يعتبرها مؤامرة امبريالية لإسقاط "حماة الديار"، إذ أنه في أيديولوجيته العمياء لا يرى أن "حماة الديار قد فصفوا دياركم العزيزة بوحشية الغزاة وحولوها إلى خراب، وجه من انتزعكم من دياركم البهية والقاكم في المقابر والسجون والخيام، بيننا من في عبوديته للطاغية يعجز عن النظر إلى وجه الطاغية..

بيننا من لا يعترف بإرادتكم وعزيمتكم وشجاعتكم في التصدي لأشرس الطغاة وأكثرهم حقدا..

بيننا وللأسف من لا يرى أن سوريا هي وطن وليست إقطاعية، أن سوريا ملككم أنتم وليست ملكا للأسد، أن سوريا هي أنتم وليست الأسد، أن الشعب فوق الحاكم وأن إرادته أعلى قيمة من أي أيديولوجية، أن حياتكم وحريتكم وكرامتكم أغلى من أي اعتبارات سياسية، أن المقاومة هي فيكم ومنكم، أنكم أنتم من أتيتم بالبطولات التي طالما انتظرناها وتقنا إليها ولم نسمع بها منذ انتحرت الأساطير، البطولات التي هزمت الهزيمة فينا..

وأنا لا تعنيني قضيتي أكثر مما تعنيني قضيتكم، ففي روحي لا تتجزأ حقوقنا ولا تتجزأ دماؤنا، ولا ترى عيناي سوى التشابه والتماهي والتكامل بين القضيتين، نحن روح واحدة، نحن جسد واحد احتل بعضه الغرباء وبعضه ذوو القربى وظلمهم أشد مضاضة..

ويحيرني ويقهرني موقف هؤلاء، فما الذي يجعلهم يقفون مع الدكتاتور ضد شعبه ومن أين أتتهم هذه القسوة وأين ألقوا بإنسانيتهم وأين ذهبوا بضمائرهم، وكيف بإمكانهم غض النظر عن كل هذه الدماء، فتحن لم نعد أمام موقف سياسي نحن أمام قضية أخلاقية، أمام إجرام ممنهج ضد الشعب السوري، أصارحكم بأنه في داخلي هنالك فلسطينية تخجل بهم، ولو فكرنا باعتبارات أيديولوجية بحتة فما الذي قدمته سلالة الدكتاتور لقضيتنا، سوى المزيد من الشهداء من تل الزعتر وحتى اليرموك، مرورا بسنين بل بعقود من الدسائس والمكائد والخيانة وصمت السلاح وضجيج المفاوضات السرية مع الكيان الصهيوني، ما الذي قدمه لنا الأسد سوى ما منحه لأعدائنا من حدود آمنة، من جولان باعه بأراضيه وخيراته لينعموا به في عز مأساتنا..

وفي الحقيقة منذ نعومة أظفاري، منذ أن وعيت على قضيتي التي حقنت بالشعارات حتى عميت بصيرتنا وتهنا عن مسارنا، لم أتوقع من النظام السوري شيئا ولم أطلب منه شيئا، لم أطلب منه أن يحارب من أجل حريتي وقد استعبدكم، لم أطلب منه أن يشرع لي أبواب الوطن وأنتم في زنزاناته الموصدة تقبعون، لم أنتظر يوما من النظام السوري أن يمنحني حياة سلبها منكم، أو أن يرفع لي كرامتي وقد رمس كرامتكم ولا أن يعيد لي هويتي وقد احتكر لسلالته هوية سوريا، ولا أن يستعيد لي فلسطين وقد افترس بشراهة سوريتكم، أنا لم أشته يوما حريتي بمعزل عن حريتكم..

لكن رغم هذه المواقف المشينة لبعضا، كم وددت يا أصدقائي لو تعرفون أن في فلسطين قلوبا تصلي لكم ونوافذ مشرعة في انتظار أرواحكم الهائمة، كم وددت لو يصل إليكم صوتي وتعرفون، كم أننا نحبكم وندرك كم أنكم كما نحن وحيدون، وكم أنكم بحاجة لسماع كلمة "نحبكم" في وسط الدمار والقتل والحقد الذي يحيطكم، كم أنكم بحاجة لمن يحدثكم عن بهائكم وجمالكم رغم الغبار والدماء التي تواريكم، لمن يحدثكم ليس فقط عن الضحية ولا عن الثائر أو المقاتل أو البطل أو حتى الشهيد بل عن الإنسان فيكم، وطوبى للإنسان فيكم، الذي تمسك بإنسانيته وبحقه في ممارستها، رغم ممارسات النظام ومحاولاته لقمعها واغتيالها منذ ولادتكم..

طوبى لكم لأنكم اخترتم الحياة رغم الموت المتربص لكم في الطريق إليها..

وعذرا سوف أخرج عن النص الذي ابتدأته إذ أنه وأنا أكتب هذه السطور اجتاحت الشاشات صورة الطفلة مقطوعة الرأس وشلت يداي، وشلت حواسي، إنها لحظات فارقة في تاريخ البشرية منذ نشوئها، إنها انسلاخ الإنسانية عن ذاتها، منذ الآن هنالك فترة ما قبل وما بعد، فما كان بوسع أي مشهد آخر أن يشق التاريخ شطرين على هذا النحو المفجع..

وأمام مشهد كهذا، على السماء أن تعلن انهيارها وعلى الكواكب أن تعلن انتحارها، أن تهوي في اللاشيء وأن تتلاشى بكل أنوارها وعلى العالم أن ينتزع وجهه عن وجهه ويتكور على ذاته حد الاختناق خجلا وحياء، على الطوفان أن يبتلعنا والبراكين أن تحرقنا والأعاصير أن تمزقنا، آنا حزينة حد التطرف حد الحقد على كل عشبة لم تمنح رأس هذه الطفلة مأوى، ولو بقي في محبي النظام السوري أي ذرة من الشرف لوقفوا أمامه الآن وأمروه: تنحى أو سنقطع رأسك..

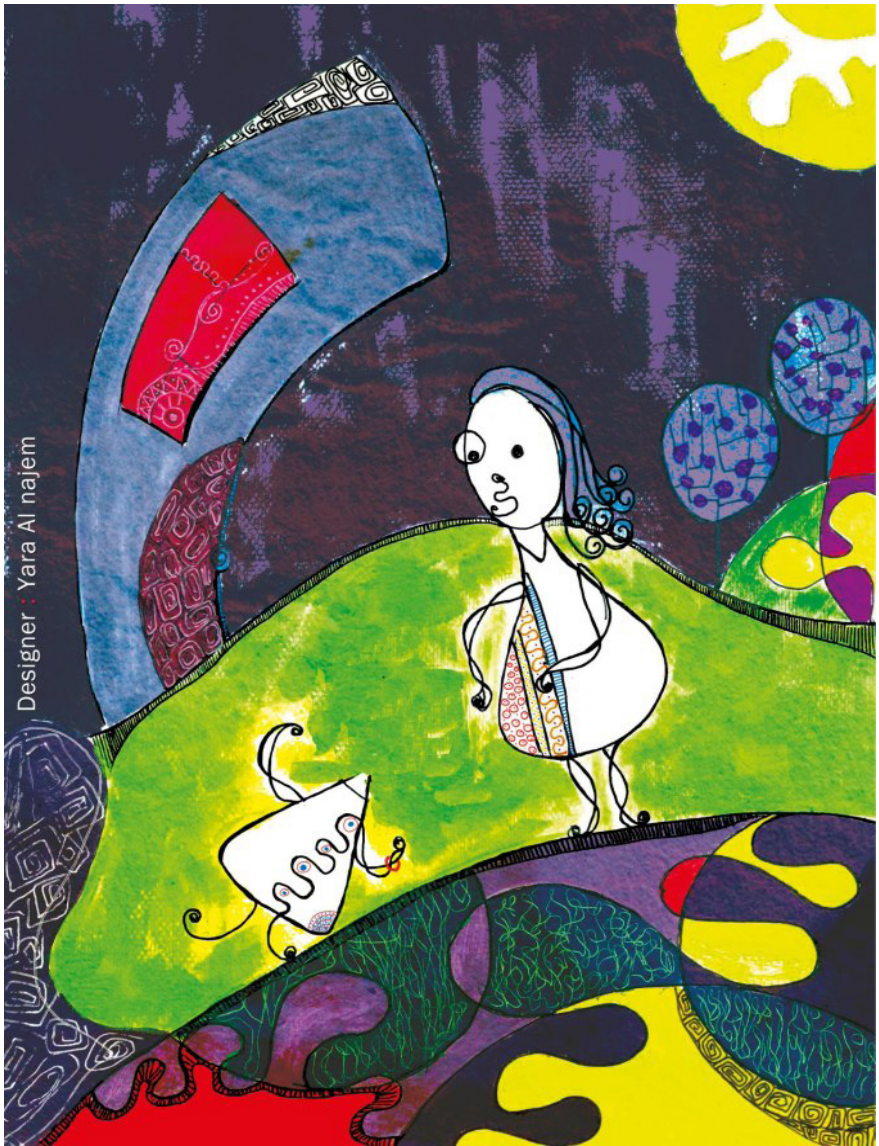

قلبي حاكوّرة صبّار يا أبي..

مرثيات من عالم البرزخ

■ عامر مطر

الوصيّة

الطرق مغلقة إلى بيتي في ليلة الخميس، والنوم يخاف الحواجز الأمنية أيضاً.. لم يأتي النعاس أيضاً يا أبي، لذلك قررت كتابة وصيّتي، فقد لا أعود من صلاة الجمعة.

لا تصالح يا أبي، وتُمسّك بقلوب إخوتي. لأن دمي ليس رخيصاً يا أبي.. اترك اخوتي يركضون نحو الشارع، لأن الضوء فيه يشبه دمي. وغنّي من شرفتنا للحرية عند كل فجر، لان دمي ليس رخيصاً، ولأن الحرية مثل دمي.

لا تصالح يا أبي، واطلب ديّتي حياتي. قل: أريده حياً هنا. وادهن باب بيتنا بدمي. واغسل جثتي بالغيم الذي أحبه، ثم ادفني في مقبرة واسعة، مزدحمة؛ لأرفع رأسي بين الأموات أيضاً..

واصرخ بمن لا عيون لهم: "أكرهكم"، وقبّل قلبي المثقوب قبل دفني، واصرخ مجدداً: لن أصالح. لأن دمي ليس رخيصاً يا أبي.

وتعال قبل كل غروب، لتقرأ أخبار الشارع لي. كيف يموت الظالم في كل زقاق بكم، وكيف يجد الناس عيونهم، وكيف تضحكون.. ولا تغسل باب بيتنا قبل الفجر يا أبي، لأن دمي ليس رخيصاً.

لا تصالح يا أبي، واطلب ديّتي حريتك.

دمشق- نيسان 2011

سينما حتى الموت

لم يُغلق عدسة الكاميرا بعد، المشهد مُستمر، هو ينام في التابوت ورفاقه يحملون صوراً لابتسامته. ويُغنون: جنّة، جنّة، جنّة.. هم يرقصون حول الشهيد، وهو يتنفس في كل الصور.

قبل أيام، كان المخرج السينمائي باسل شحادة يمسك كاميرته في حمص، ويلتقط التفاصيل، ينتزع من الموت مشاهد للحقيقة، ويعلّم الشبان هناك، كيف يتعاملون مع العدسة كما ينظرون من عيونهم، لأن العالم يرى من خلالها أحلامهم بالحريّة.

لكنه الآن في تابوت، وكاميرته بعيدة ومقتولة مثله، بفعل قذيفة (لحماة الديار) سرقت حياته، وجزءاً من الحقيقة القاسية في حمص.

يقف مغني الثورة عبد الباسط الساروت قرب التابوت، ويحمل لافتة مكتوب عليها: "يا يسوع.. يا يسوع، عن ثورتنا ما في رجوع". ولا يزال المشهد مستمراً، ويرقص الجميع، وهو يتنفس في الصور.

تعيدني لافتة الساروت إلى أوّل الثورة، ليلة 28 كانون الثاني 2011، حين غنّى شهيد السينما السوريّة: "هبّي يا رياح التغيّر"، مع العشرات من أصدقائه أمام السفارة المصريّة في دمشق.

حين بدأ أول الصوت المصري في الساحات، كنّا نتأمل حناجرنا، ونخاف أن نموت من الحسرة. قلنا حينها، أنا وباسل وثلاث صديقات، أن مجرد اشعال الشموع أنفع من الصمت، وقد تتحول الشمعة إلى صوت.

دار نقاش طويل مغلق على الفيس بوك، واتفق الخمسة على دعوة الأصدقاء لإشعال الشموع أمام السفارة، للتضامن مع شهداء الساحات المصريّة. مسّنا الجنون الجميل حينها، وأرسل باسل الدعوة من هاتفه الخليوي إلى الأصدقاء، رغم الحذر من استفزاز نظام يرتجف خوفاً من رياح التغيير.

وصلتُ ليلتها مع لافتات صغيرة كُتب عليها "نعم للحريّة"، للتضامن مع شهداء الساحات الحالمة بوطن حر. كان الحضور الأمني كثيف، وباسل يقف مع ابتسامته قرب المكان ينتظرنا مع مجموعة من الأصدقاء. فطلب عناصر الأمن منه تفاصيل بطاقته الشخصية، ليراجعهم صباح اليوم التالي.

شموع، ولافتات، وأغاني تحلم برياح التغيير.. من هنا بدأت الثورة برأيي، لأن السوريين لم يغادروا الشوارع بعدها، وربما خجلت الريح من حناجرنا، وجاءت إلى سورية.

وصلت الريح إلى كل الشوارع السوريّة، وسرقت أصدقاء كثر، آخرهم باسل، وكنت أتمنى لو متّ قبلهم في ساحة ما، أو في زنزانة ما؛ خير من العيش بذاكرة تشبه المقابر الجماعيّة.

لكني استعيد ابتسامة باسل، وصوت الموسيقي ربيع الغزّي الذي قتلوه قبل أيام أيضاً.. فأمسك بأحلامهم وأفكر بالعودة من ألمانيا إلى سوريا، كما فعل شهيد سينما الثورة، الذي ترك منحة لدراسة السينما في الولايات المتحدة، وعاد لأن الثوّرة تُعلّم أكثر.

كان القرار حكيم، فلتوثيق الملحمة، متعة استثنائية؛ أن يصوّر السوري حلمه بكاميرا، ويواجه رصاصة قناص دون خوف، لأن الموت جميل في الشوارع، ولأنه من أول مفردات الثورة "الموت ولا المذلة".

يتحدث نصف السوريين الآن بلهجة الوصايا، فكل الأفعال تؤدّي إلى الموت، أو إلى الغياب بشكله السوري الغريب، لكن الموت أجمل، هذا ما قاله لي مُسنّ حوراني في سجن القابون العسكري.

قال باسل لصديقته في آخر زيارة له إلى دمشق، أن موته قريب ويفضل العودة إلى حمص، إذ أحسّ بالغربة في دمشق بعد تجربة حياة الحريّة في مناطق الثورة المحررة.

صدق حدسه بالموت، ولابد أن يتحقق حلمه بسورية الملوّنة والديمقراطية.

أتخيل شكل الفيلم الذي صوّره في حمص، ولم تتح له الحياة إكماله، كان يلاحق أبطالاً لا نعرفهم، كما أسرّ لحبيبته. يوثّق يوميات حمص القاسية، لتخرج مبتسمة في فيلمه.

أتذكّر فيلم "بونجور" الذي أخرجه قبل الثورة بسنة، وكنتُ جزءاً منه، حين كان يعمل معنا في مخيمات السوريين المهجرين من الشمال إلى الجنوب بفعل الجوع والجفاف والإهمال، أشاهده للمرة المئة واستغرب، كيف استطاع تحويل القهر إلى فرح!

أخاف من ذاكرتي، وأعلّق على جدار غرفة نومي صورته دون شريط أسود، في محاولة لاستعادة الشجاعة، وتقليد صديقي الشهيد، أن أترك كل الأشجار والشوارع هنا، وأحمل كاميرتي إلى شارع سوري، تتحقق الأحلام فيه كل يوم.

تموز 2012

وحده الجرح

خرجت القذيفة من المدفع، ودخلت في جسد صديقي، يضحك الجندي، ولا أستطيع فعل شيء.

أعود إلى أول ذاكرتي معه، كانت أسنانه تؤلمه وتؤلمنا.. ويضحك. تلمّس ضرار ليلتها رأسي المجروح بحذر بالغ، وطلب مني الجلوس. سيبدأ هو بمراقبة السجانين، وسيغفو بعدها لأراقبهم أنا.

القيود "الكلبشات"، في معصمينا، وجرح في رأسي، وآخر في فمه.. ممنوع علينا الجلوس أو النوم، لأن التحقيق لم ينتهِ بعد.

كان ضرار مستو شريكي في الجرح والقيد والزنزانة، لكنه اليوم مات؛ توقف قلبه بفعل قذيفة أطلقها جندي ما على بلدة قدسيا.

اعتقل ضرار قبلي، وقبل عيد الفطر بأيام، خطفوه من محل الحديد الذي يديره في بلدته الثائرة، ضربوه يومها وخلعوا أسنانه، وظلّ يرفض ما يطلبه عناصر الأمن منه حينها؛ أن يهتف بحياة سيدهم.. اليوم قتلته صواريخهم، وظل يرفض.

كان يبدد الوقت في الزنزانة بصنع خيوط تنسج حول المعصم لزوجته، ولنا، ويُغني لشفان والقاشوش، ويهتف لحريته بصوت منخفض، فيشتمه سجان يعبر أمام مهجعنا.

بعد أسابيع من الضيق هناك، صارت لنا ذاكرة مشتركة، صرت أعرف غناء العتابة مثله، وأعرف قصص طفولته، وأفكر مع أصدقاء الزنزانة الآخرين بتسمية طفله الذي سيأتي بعد أشهر.

لا شيء نفعله هناك غير الذاكرة والأحلام.. نسرد ما نراه في الليل كل النهار؛ نفسّر، ونرسم ملامح أحلام الليالي القادمات.

وعدته برحلة إلى الفرات، ووعدني بغداء شيش برك من طبخ والدته.

سأله المحقق مرّة، ماذا تريد غير الحريّة؟ فأجاب: "أريد خالي أيضاً". يا قلب أمك، سرقوك اليوم منها، وسرقوا أخوها عام 1982.

كان عمر ضرار مستو 18 سنة حين غادر سورية نحو العراق لمحاربة الاحتلال، ولم يمت هناك رغم الآلاف القذائف، واليوم.. اخترقت جسده قذيفة وطنية.

وجدت ضرار مجدداً في سجن عدرا، بجرح أصغر، ومع أسماء جديد لطفله القادم.

صرنا نجلس في باحة السجن، أسأله عن أنواع الحديد، لأكتب نصاً عن مساحة الحياة داخل زنزانة.

لصديقي الحدّاد قلب غيمة، وجرح لم يتوقف بعد.

أحبُّ قدر يدفعني لأتبع طريقك دون قصد كلّ مرّة، حتى وإن كان جرحك اليوم أكبر من الحياة، وإن كانت محطتك الأخيرة مقبرة للأحرار.

تموز 2012

رائحة الخشب

حين كانوا يضربوه لابد أن خياله ذهب نحو منحوتة عن جسده الذي يئن من الألم، وعن السياط وآلات التعذيب، وربما ظلّ يُفكّر بأعماله التي أبعدها عن صواريخ سجانيه. لا يمكّن التكهّن بهواجس نحات يعيش التعذيب إلى أقصاه. بهواجس نحات مات من شدّة الوجع والسياط.

تهدّم جسد الفنان السوري وائل قسطون بفعل التعذيب، احتلت ملامحه السياط في فرع أمن مجرم لا يعرف وحوشه الفن ولا الإنسانية، ونقلوه بعدها إلى برّاد مشفى عسكري في حمص المدمّرة، وطلبوا من عائلته استلام جثته.

حاصر الخشب جثته المقتولة في الطريق إلى المقبرة، علّ رائحة الخشب تحرّك أصابعه التي صنعت عشرات المنحوتات. في قبر صغير غمروه بالتراب والماء علّ الطين يحرّك النحات المقتول، دون جدوى..

اشتغل النحات المقتول بالطين والخشب عشرات المنحوتات عن الحب والمرأة، إذ قال مرة في مقابلة معه بأنه لا يفضل "الحجر" وإنما يعشق "الطين" و"الخشب" فالأول هو الإنسان لأنّه من التراب وإلى التراب، و"الخشب" لأنه القريب الأقرب لنا، يُولد بلطف، يراهق بعنفوان، ويموت بحكمة.

يصف قسطون نفسه، أنه "أقسى من الحجر"، بعد تجارب نحتية متعددة مع هذه المادة الصلبة، هو أقسى؛ أرضخها وصنع منها أجساد عاطفيّة لنساء أحبّهن. لا يفهم سجانك يا وائل غير القسوة والحديد فقتلك بهما، لكل منهما قسوته. هو ينحت الحبّ، وسجانه الموت والألم.

لابد أن رائحة الخشب تفوح الآن في قريته مرمريتا، كما تفوح رائحة القذائف والإسمنت المحترق في كل بلده سورية، فوائل يحبّ مادّة الخشب، ويصفها: "تكبر وتصغر وتموت وتعيش بحاجة لسقاية ورعاية كالمرأة تماماً".

قصة النحات الشهيد مع ظلم نظام الأسد قديمة، إذ حاول دخول كليّة الفنون الجميلة في دمشق بعد تحصيله أعلى درجة في الامتحان العملي، لكنهم رفضوه، فدخل المعهد الطبي. لكنه عاد إلى الكليّة وحاز مجدداً على أعلى درجات الامتحان العملي في الرسم فدخلها، ودرس في قسم النحت.

تتركز أعمال قسطون حول الحب والمرأة، وعرض أعماله في عدّة صالات داخل سوريّة، ليقدّم للجمهور خشبه وطينه بصيغة حب منحوت على هيئة امرأة.

الأسد ينحت البلد بالقذائف، يعجن المدن بالموت، والنحات الشهيد يختزل أعماله بعبارة واحدة يخاطب فيها الإنسانية: "أحبك حتى النسغ الطالع من قلب الأرض إلى أحلى برعم شجر".

أيلول 2012

قلبي حاكورة

كنّا نسترق السمع، ندفع آذاننا على وجه باب الحديد حين صرخ شاب من المهجع المجاور للسجان. متى أخرج؟ تأفف السجّان وردّ بسخرية: "بعد سنة"، ولا تزال أسماعنا ممجوجة بالحديد، فضحكتَ يا جار الزنزانة وتمتمتَ: "يكون سقط النظام".

ضحكّنا بصوت منخفض على ردّة فعل السجان؛ بالاستغفار والركض نحو غرف التحقيق. بعد لحظات توقّف الضحك وظلّ صوتك وحيداً في ممر الفرع مع أصوات شتائمهم وتعذيبك.

اليوم آخر أيام عيد الفطر، قبل عام بالضبط غادرت من بيتي إلى عالم البرخ، حيث تعرّفت عليك يا أبو أبو زيد، جاري في المهجع.

استيقظت بملل في بيتي البعيد عن برزخهم. قلّبت صفحتي على الفيس بوك، ورأيت صورتك مع صفتك الجديدة المكتوبة فوق ملامحك "شهيد".

قلبي حاكورة صبّارة يا صديقي. فكّرتُ منذ أسابيع بكتابة مرثية عن حواكير الصبارة التي انتزعتها جرافات النظام خوفاً من صوتك وأصوات شركاء حريتك في بساتين المزّة.

أنزع الشوك عن أصابعي، وأستعيد ذاكرتي معك، حين رفعتُ أصابع النصر لك في طريقي إلى الحمامات، ورآني السجّان، فضربوني ونقلوني من المهجع إلى المنفردة السابعة، حيث تعيش مع ستة أحرار آخرين.

يدي تؤلمني بشدّة، وأنت تقرأ القرآن على وجعي، ووجعك، وتعدني بنصر قريب.. فأترك لك يدي، وأمدّ أنفي من بين قضبان الباب لأتنفس لأن الهواء ضيّق في منفردتنا المزدحمة.

في فجر اليوم التالي طلبت منك أن تعلّمني بعض الآيات، هل تتذكر؟ " الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ. يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ".

لم تكن تلاوتك واضحة بما يكفي، فأتعبتك آنذاك بالتكرارات، لأحفظ سوراً أكثر. بعد أيام بدأت بتعلمي سورة الكهف، لكنهم نقلوني إلى مهجع في مبنى آخر قبل إتمام الحفظ.

كنتَ تبحث عن الحسنات داخل المنفردة يا أبو زيد، بينما أحاول اكتشاف مساحات جديدة في قلبي.

بعد شهر ونصف، وجدتك تتمشى في ساحة سجن عدرا، أسمكت بيديك يومها وركضت نحو أصدقائي، وأقول: "هذا البطل اللي حكيتلكم عنّو"، فخجلت مني ومنهم. هل صدقتني الآن يا أبو زيد؟ أنت بطل، وشهيد أيضاً.

نسخت صورتك على كومبيوتري، ودخلت أبحث عن صور أخرى لك على صفحة تنسيقيّة المزّة، أقلّب الصور، فباغتني وجه أبو سعيد مع صفته الجديدة أيضاً، شهيد.

بكيت يا أبو زيد، وتوقفت بعد لحظات خجلاً منك.

خرج أبو سعيد من الفرع قبل اعتقالك بأيام، كنّا نخاف من تحويله إلى الجويّة، لكنك طمأنت قلوبنا بحريته، هل تتذكر؟

ذهبتُ إلى المزّة بعد الإفراج عنّي بحثاً عن محل أبو سعيد، لكني فشلت في العثور عليه، وشكره على اتصاله بوالدي فور حريته، كنت أحمل أثناء بحثي عنه ماء بارد وكيس سكر، أرسلهما قلب أبي إليه.

نسخت صور أبو سعيد على كومبيوتري أيضاً، في ملف صور الأصدقاء الشهداء، ورميت صورتي فيه، عليّ أراكما من جديد.

أيلول 2012

هلوسات في زمن الثورة

■ آية الأتاسي

صباح آية:

أفتح النافذة والستائر.. إنه زمن الحرية، تكسرت جدران السجون في رؤوسنا وتكسير السجون الحقيقية ما هو إلا مسألة وقت..

بحركة تلقائية أفتح النافذة الصغيرة التي تدخلني العالم الافتراضي.. أتفقد أنفاس الأصدقاء وأنهم ما زالوا أحياء.. وكمن يستيقظ وينظر لنفسه في المرآة.. أدخل صفحة آية.. توأمي الافتراضي في سوريا.. أسمعها تستمع لفيروز وتغني: "علموني حبك ولاموني".. مخرجة لسانها في وجه القذيفة.. القصف يزداد وصوت المذياع يرتفع أكثر.. "أنتم تصنعون الموت ونحن نقاوم بالحب والحياة والفرح" تصرخ آية الداخل وهي تصنع مناقيش الزعتر للصباح.. يسيل الزيت فوق الزعتر الحلبي وتسيل دموعها فوق غمازيتيها الذابلتين.. أسألها" لماذا تبكي؟".. تقول إنه البصل.. ثم تضحك وهي تتذكر ألا بصل في المنقوشة.. بل زعتر حلب..

"إنه الزعتر الحزين ما يبكيني.. حلب لم تعد قادرة على الغناء والطرب.. الفستق الحلبي طقطق بلا صوت هذه السنة.. خجل من احمرار ثماره.. أمام حرمة الدم الأحمر المسكوب".. تقول آية أو تكتب على لوحة مفاتيح لا أراها.. بل أرى آثار خبطاتها على نافذتي المفتوحة للأمل..

مظاهرة آية:

"إلتقيته في تلك المظاهرة.. كان كالمنارة على السفح.. محمول على كتف صديقه.. التقت عيناننا على كلمة حرية ولم استطع نسيانه".. كتبت آية الداخل..

لم يقل لي كلمة حب.. بل صارت كلمة الحرية هي تعويذة الغزل.. وبداية قصص الحب.. تضيف بحنين..

أسالها إن كانت تشتاقه؟..

فتجيب بأنها تشتاق المظاهرات السلمية حين تشتاقه.. سرقوا منها الثورة وسرقوا منها الحب.. أصبحت تراقب القذيفة من نافذتها وحين تسقط بعيداً.. تعرف أنها نجت اليوم ولكن بكره غير مضمون.. أصبحت تنظر لثورتها من النافذة.. لم تعد فاعلة.. لا تحب الأسلحة ولا تتقن استعمالها.. ولكنها أصبحت خبيرة بأسماء القذائف والمدافع ومداها.. وحين اسألها عن مصدر ثقافتها العسكرية.. تضحك وتخبرني: مكره أخاك لا بطل، علينا أن نعرف بأي أسلحة سنموت لنبزق عليها مسبقاً ونكتب وصيتنا. تخبرني أن ولعها بالمظاهرات بعد سنوات من الكبت الاستبداد، صارت تعيشه وحيدة.. تعلن شعار المظاهرة قبل ساعة وتترك أخوتها الصغار يرددون وراءها: سوريه لسا بدها حرية..

أبو آية:

تكتب آية: أبي موظف بسيط لا علاقة له بالسياسة.. ظل حياته كلها يمشي قرب الحائط ويقول " يا ربي السترة".. كان حنون وكريم لم يبخل علينا بشيء.. ولكن حياتنا كان لها تابوين: لا حب ولا سياسة..

قامت الثورة ولم تدخل رأس أبي لتقلبه.. ولكنها دخلت قلبي وجعلتني أثور على سلبيته وتابوهاته..

كنت أرى أن الديكتاتور مسؤول عن شقائنا ولكن سكوت أبائنا واستسلامهم كان المسؤول الأكبر..

كنت أخرج بالمظاهرة وأتظاهر أنني أدرس عند صديقاتي.. أحب ذلك الثائر المشاكس وأخفي رسائله في

جوف كومبيوتري وأغلق فمه بمئة كلمة سر!.. ماذا عنك؟ تسألني..

أحاول أن أجيب توأم اسمي وروحي فأعجز عن كتابة أبي بجمل مفيدة.. أكتب لها باختصار:

أبي كان صورة معلقه على جدار غرفة الجلوس.. وروح حرة في جسد معتقل في زنزانة.. لم يبقى من أبي إلا قبر منسي في مدينه مهدمه وشاهده كتب عليها: ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون".. لم أزر قبر أبي منذ سنتين.. هل يفتقد الأموات زوارهم؟..

تكتب لي آية الداخل: سأزور قبره وأترك ورودك عليه وسأوقع باسمي.. آية.. هل سيكتشف الخدعة ويعرف أنني لست آيته!!!..

غياب آية:

قبل أن أنام.. أدق على نافذة آية وألوح لها تلويحة المساء.. أرسل حكاية ما قبل النوم.. أرسل قبلة المساء.. ولا أسمع من نافذتها إلا أصوات بم بم بمبمبم.. لا جواب!..

هل انقطعت الكهرباء.. هل كانت آية حقيقية.. هل ماتت آية تحت القصف.. رغم كل وعودها لي بالبقاء حية!!!..

لا كلمة ولا صوت ولا تلويحة.. هل كنت أهلوس ؟.. هل تمخترت روحي في شوارع دمشق الضيقة حقاً.. وعادت بروائح البارود مختلط بروائح البزورية؟؟ أم كانت روحها.. هل آية الداخل.. هي أنا صغيرة أم أنا الحلم.. أم أنا الغد؟..

أحس بصداع يقسم رأسي قسمين.. وقلبي قسمين.. وروحي قسمين.. أنا آية هنا وهناك.. أنا التي لم تغادر يوماً.. لأن الوطن نغادره ولا يغادرنا..

أغلق الضوء ليهدأ وجع الشقيقة الذي يقسم رأسي.. وألمس الجزء الأيسر حيث آية الداخل.. وأوصيها أن تبقى على قيد ثورة وتتركني معها أعيش حلاوة الانتصار..

عن الثورة ودفن الآخرين أحياء

■ ياسر أفغاني

لا شيء على الإطلاق كان يدعو لقيام ثورة في البلد. كل شيء يسير على ما يرام.. الوراثة شرعية.. الدستور تغير.. البرلمان موافق.. الجميع صامت والشعب مشغول بتحصيل رزقه، وما دام صبر كل هذا الوقت على حكم حافظ، فلن يعترض على رغبته الأخيرة.. لم يتعود هذا الشعب أن يرد له طلباته، لقد أدرك الشعب مع الوقت أن رئيسه أدرى بمصلحته منه.. وما دام رئيسه أراد أن يورث كرسيه لبشار، فليكن بشار.. كان من قبل قد أراد باسل.. وقد هلل الشعب لباسل.. ثم مات باسل.. ولو أراد ماهر، لهلل الشعب لماهر.. وإذا احتاج دستور البلاد نصف ساعة من الزمان من أجل ست سنوات، فلا بأس من ربع ساعة أخرى من أجل عشر سنوات.. لا يهم من الذي يحكم، بقد من الذي وقع عليه الاختيار.. وما دام حافظ سيحكم من قبره، فليحكم باسل أو بشار أو ماهر أو القرود..

في يوم جمعة من شهر كانون الثاني أذيع خبر وفاة باسل.. يقولون إن باسل كان أجدر بالرئاسة من بشار.. يقولون إن حافظ الأسد كان يعده لمثل هذا اليوم.. وقتها كان بشار آخر هم تلك العائلة.. من يهتم إن درس الطب أو الحلاقة.. أن سافر أو بقي في سوريا.. تزوج أو انحرف. يقولون إن بشار قد حشر حشراً في كرسي الرئاسة.. أي أن السلطة هبطت عليه من حيث لا يدري ولا يعلم.. تماماً مثل ذلك التاجر الذي تهبط عليه ثروة فيحتار كيف ينفقها..

كانت "نسوان" الشام تنصح من أراد الزواج من أولادها أن يبتعد عن الفتاة "الفارغة العين".. تلك التي مهما أكلت لا تشبع. أحد أصدقائي تزوج بفتاة "عينها فارغة".. هو اليوم غني جداً، لكنها لم تشبع بعد.. وجدت نفسها فجأة في بيت يشبه المتحف.. وجدت نفسها مضطرة لتتعلم أسماء الماركات الأجنبية وتلفظ بعض الكلمات الفرنسية.. من غير المعقول أن تقول إنها لا تعرف ما نوع الفازة التي تقف بطول إنسان في زاوية الغرفة.. ولا ماركة الفستان الغالي الذي ترتديه.. هبطت عليها النقود مثل الشلال، وهي لا تعرف ماذا تفعل بكل تلك النقود.

هبطت السلطة على بشار الأسد مثل الشلال، وهو لا يعرف ماذا يفعل بكل تلك السلطة.. عاد من بريطانيا وفي رأسه ألف فكرة لإنفاق السلطة التي هبطت عليه.. سيترك الشعب يتحدث كما يريد.. لا، سيعتقله إن تحدث.. سيطلب من أتباعه عدم تعليق صوره هنا وهناك.. لا، سيعلقها في كل مكان.. سيسمح بالانترنيت.. لا، سيمنع المواقع العميلة.. سيطلق المعتقلين من السجون.. لا، سيعتقل المزيد.. سيكرهونه.. لا، سوف يحبونه..

هبط السلاح على بعض كتائب الجيش الحر مثل الشلال، وهو لا يعرف ماذا يفعل بكل ذلك السلاح.. بعد أربعين سنة من نزع السلاح من أيدي المواطنين، وجد بعض الناس أن البندقية وسيلة فعالة لإقناع الطرف الآخر بوجهة نظر أخرى وبسرعة قياسه.. وما دمنا نتكلم باسم الثورة، فنحن على حق.. وما دمنا على حق، فلنعذب ونعتقل ونهدد ولنرم بالجثث من على السطوح.. ولنسرق السيارات الفارهة بحجة التأكد من ملكيتها.. ولنقتل كل من نجد على بطاقته الشخصية علم النظام الأحمر ذا النجمتين..

في أوربا الهواء النظيف والقطارات لا تتأخر عن موعدها، بينما يعيش أولئك الذين أتحدث عنهم تحت القصف والضرب والتفجير. لا شيء يجعلني قادراً على الرؤية بمنظورهم أو تقييم الأمور من حيث يرونها ولا أراها.. ولكن لا شيء يبيح ترويع الشعب الآمن بحجة تحرير منطقة من سيطرة النظام.. لا شيء يبرر عسكرة من لا يريد أن يتعسكر أو اعتقال من لا يقف مع الثورة.. ما الفائدة التي نجنيها من استبدال بشار الأسد وعلمه الأحمر ببشار أسد آخر بعلم أخضر؟.

الثورة حالة مستمرة وليست حدثاً.. الثورة حالة تحتاج إلى صيانة دائمة وإلا صدئت وتحولت إلى نظام أسدي باسم آخر.. مَن مِن دكتاتوريي القرن العشرين، الذين قامت شعوبهم ضدهم، لم يصل إلى الحكم عن طريق الثورة.. معمر القذافي، علي عبد الله صالح، زين العابدين بن علي أم حافظ الأسد؟..

الثورة ليست شعاراً.. كم بناء لحزب البعث في سوريا سمي باسم الثورة؟ جسر الثورة.. جريدة الثورة.. شارع الثورة.. مستشفى الثورة.. مدرسة الثورة.. ماذا كان اسم أول درس قومية في كتاب البكالوريا؟

هل سنحتاج ثورة بعد أربعين سنة للإطاحة بالثورة التي تطيح اليوم بالثورة؟

على مدى نصف قرن من الزمان حاول نظام الأسد تدجين عقول المواطنين.. منظمة طلائع البعث.. شبيبة الثورة.. اتحاد الطلبة.. حزب البعث.. مادة القومية التي تدرس حتى السنة الثانية من الجامعة.. التعبئة العقائدية البعثية.. حشو الرؤوس بالشعارات وبأقوال الأب القائد والقائد الخالد.. برامج تلفيزيونيه مع العمال والحرفيين والقوات المسلحة.. التقرير الجوال وأضواء على الأحداث والشرطة في خدمة الشعب ورسوم متحركة هادفة وأفلام روسية كل يوم أحد وقناة ثانية أجنبية ومذيعين ومذيعات يشبهون ضباط الجيش.. مهران يوسف وماريا ديب (أم عمار) وماجدة زنبقة وعلاء الدين الأيوبي ومروان شيخو و"شو بدي اتذكر منك يا سفرجلة"؟

على مدى نصف قرن من الزمان، استطاع نظام الأسد تدجين بعض العقول.. تعرف هذه الظاهرة اليوم باسم "المنحبكجية".. لكنه أيضاً، ومع فشله بتدجين عقول أخرى، استطاع تدجين طريقة تفكيرها.. صحيح أنه لم يكسبها كموالاة لنظامه، لكنه كسبها كموالاة لطريقة تفكيره: إلغاء الآخر بكل طريقة ممكنة.. بالتشويش على القناة الأردنية لحماية الفكر السوري.. أو بحجب مواقع الإنترنيت المغرضة.. وبمراقبة البريد والاتصالات.. وبالترغيب والإغراءات.. وبالترهيب والقصف.. على كل الأحزاب السياسية أن تخضع للجبهة الوطنية التقدمية.. على كل المحطات الإذاعية أن تنطق بما يريده النظام.. على كل الجرائد أن تتبع لمؤسسة الوحدة للصحافة و الطباعة و النشر.. المهم هو ألا يكون هناك وجود للآخر.. لأي آخر.. سواء كان منهجاً أو بلداً أو طريقة تفكير.. حتى ولو اضطررنا لدفن البشر أحياء.

لا يكفي أن تكون ثورتنا لكل أديان السوريين، مسلمين ومسيحيين ويهود وموحدين وإسماعيليين وعلويين وسريان وملحدين ووجوديين.. ولا يكفي أن تكون لكل إثنيات السوريين، عرب وكورد وأرمن وتركمان وشركس.. عليها أن تكون أيضاً لكل انتماءات السوريين، موالين ومعارضين ورماديين وصامتين.. ثورة لكل السوريين وليس لكل الثوريين! وإذا اتبعنا اليوم طريقة النظام في وأد الآخر، أي آخر، فسوف نئد معه إنسانيتنا.. سيكون النظام قد نجح في تدجين عقولنا بل واحتلال جينات تفكيرنا التي نرثها ونورثها.. لن تنفعنا كل شعارات الحرية والمدنية التي نرددها اليوم.. وسوف نحتاج من كل بد ثورة بعد نصف قرن آخر، عندما يولد جيل لا يعرف نظام الأسد ولا يخاف من الجيش الذي يرهبه.. تماماً مثلما قام هذا الجيل بثورته وهو لا يعرف نظام ما قبل الأسد ولا يخاف من الجيش الذي يرهبه.

عقلية المستعمر

■ رفيق الحلو

يتكلم الجعفري عن الاستعمار الفرنسي فيرد عليه فابيوس وزير خارجية فرنسا بذكر وثيقة طلب فيها والد جد بشار الأسد وعلويون آخرون من فرنسا عدم إعطاء الاستقلال لسورية. لا بد أن فابيوس خرج مبتسما من القاعة وهو يعتقد أنه سجل نقطة في مرمى الجعفري والحقيقة أنه لم يسجل إلا فصلا جديدا من مسلسل غباء السياسة الغربية الرائج في الآونة الأخيرة.

لم يكن كلام الجعفري يستحق الرد أصلا، وهو لم يثر إلا التململ والاستخفاف في الحضور المؤلف بأغلبيته من ممثلي دول كانت إما مستعمرة أو مستعمرة، والاجتماع لا يبحث محاكمة جرائم الاستعمار القديم بل الجرائم اليومية للنظام السوري. أما وثيقة الزعماء العلويين فقد سبق لي أن فندتها شخصية في مقال سابق وهي لا تستحق التوقف عندها مرة أخرى. على كل حال ليست هي المرة الأولى التي يختبئ فيها المستعمر خلف هذه الفئة أو تلك لتبرير وجوده وطالما وجد في التاريخ من يتمسك به: تجار مدينة ما، زعماء ديانة، أو أشخاص من أقلية تخشى الاضطهاد. يكفي أن نذكر كيف تظاهر أهل انجوان في جزر القمر منذ سنوات مطالبين بإعادة ضمهم لفرنسا.. في كل بلد وفي كل زمن كان يجد المستعمر وبدون صعوبة تذكر من يجاهر بمساندته. المشكلة أن الاستعمار القديم قد ولى وفابيوس ما زال ينتمي على ما يبدو إلى تلك الفئة من الفرنسيين المقتنعين أن الاستعمار كان ضرورة للشعوب وأن تلك الويلات كان لا بد منها لنشر القيم والحضارة الأوروبية. أمثال فابيوس من المدافعين عن الاستعمار هم من يجعل فرنسا حتى اليوم لا تقوم باعتذار واضح وصريح تجاه الشعب الجزائري عن ١٣٢ سنة من الاستعمار وما يقارب المليون شهيد.

كنت أعاتب أحد الفرنسيين الذي لم يعرف أين تقع سورية قائلا له: كيف، هل يعقل أن تحتلوا بلدا ٣٦ عاما، تنهبوا خيراته، تقسموه وتقمعوا شعبه، ثم تنسوا أين يقع. أجابني: أنا أسف لما فعلناه في الماضي.. ثم تابع: لكن.. أنا.. لم أفعل شيئا!.. ليته كان لفابيوس نفس منطق الصديق الفرنسي، إذ كان بإمكانه أن يقول: الجرائم والأخطاء لا تورث.. ولا يجوز الاختباء خلفها أو استعمالها لتبرير جرائم تحدث اليوم.. عوضا عن ذلك راح فابيوس يحمل بشار موقف والد جده وهكذا يكون كل من الجعفري وفابيوس قد اتفقا على أن الأخطاء تورث.

لكن فابيوس لم ينتقد ما فعلته فرنسا بسورية بل دافع عن هذا الاستعمار بالإيحاء بكلامه عن الوثيقة بأنه كان يحمي الأقليات وهو بالضبط ما كان يقوله أجداده وهكذا يكون فابيوس وقع في فخ الجعفري الذي أراد أن يجر فابيوس إلى موقع الدفاع عن الاستعمار فنجح في ذلك.. ولا غرابة بعد الآن إذا راح التلفزيون السوري يقلل من أهمية ما يحدث في سورية مقارنة بما فعله الفرنسيون في فيتنام أو في غيرها.

كلمة فابيوس هي إهانة بحق الشعب الفرنسي المساند في أغلبيته الساحقة لحقوق الإنسان وللسلام بين الشعوب. متى تنجح الشعوب في مد الجسور بينها بدون نخب ولا دبلوماسيين.. من ذوات المصالح الضيقة والخطاب المقيئ ؟

سبب كل هذا الدمار

سبب كل هذا الدمار ليس ثورتنا.. سببه الخمسون عاما التي سكتنا خلالها عن أعمال هذا النظام وتعايشنا مع نفاقه وتركناه ينمى كالطاعون.. يشتكي أحدهم أن كبار كتابنا لم يتنبؤا بكل ما يحدث اليوم.. ربما كلامه فيه شيء من الصحة.. لكن الشعب كان يعي أن ثمن الحرية في سورية سيكون باهظا.. بعض من تأخر في الالتحاق في الثورة كانت هذه القناعة هي أحدى أعذاره: هذا النظام سيخرب البلد إذا طلب منه الرحيل.

المشكلة أنني حين أستعيد شريط هذه الثورة لا أجد لحظة كان يمكن التوصل فيها مع النظام إلى حل سياسي.. لأنه وبكل بساطة يرفض الإصلاح. لأنه يعرف أن أي أصلاح حقيقي ولو جزئي يعريه تماما ويكشف عن انعدام شعبيته عند الأغلبية الساحقة من شعبنا.

هل كان بإمكاننا أن لا نمشي في هذه الثورة أو كان بإمكاننا أن نوقفها؟ هل كان بإمكاننا ترك درعا تقمع وحدها ؟ هل كان بإمكاننا عدم المطالبة بمعاقبة القتلى ومدنسي الحرمات؟ والتوقف الكلي عن التظاهر ما دام جواب النظام هو الرصاص الحي؟ أو القبول بمسرحية الإصلاحات وقانون الأحزاب والتهليل لهما عشر سنوات أخرى؟ ترك النظام وأجهزة مخابراته تخرج منتصرة فتعمل بالشعب قمعا بثقة مضاعفة؟ ترك الشارع للدبابة والجلوس في المنازل وعدم إيواء الجنود الأبطال الهاربين ونصح هؤلاء وإن كانوا أولادنا بعدم الاقتراب من أي منطقة مسكونة وانتظار حتفهم في مكان ما في العراء؟

استعراض هذا الشريط يوحي إلى أي درجة لم يترك لنا هذا النظام الخيار لأنه هو من كان يبحث عن إركاع الشعب حتى قبل أن يرفع هذا الأخير شعار إسقاطه.

لو انحنينا في أي لحظة لبشار وعصابته ربما كنا وفرنا دماء أطفال ماتوا اليوم، كي نهدر دماء أطفال سيولدون بعض سنة أو سنتين أو عشرة. ثمن الحرية في سورية كان ولا يزال غاليا وسيكون دائما غاليا، وما يزيد حريتنا غلاء هو التلكؤ في المطالبة بها.. إذا كان لنا أن نندم على شيء.. فهو عدم قيامنا بثورة بهذا الحجم من قبل.. وما يستحق ندم الآباء هو أنهم تركوا حكم المخابرات يستشري في الوطن الحبيب..

ثم، وهو الأهم، كيف لك أن تضبط الخنوع فتفرض على الأجيال الجديدة أن تقبل بما قبلت أنت به وأن تمشي كما مشيت أنت؟ كيف لك أن تقتل الحلم.. عند شبابنا.. الحلم في أن يعيشوا في القرن الواحد والعشرين شيئا أخر غير حكم المخابرات؟ هذه الثورة كانت حتمية.. وهذه التضحيات هي قدر هذا الشعب.. كل ما يمكن أن نفعله لشهدائنا هو أن لا نجعل دمائهم تذهب سدى فلا نسمح مرة أخرى لأي مستبد، مهما كانت هويته أو انتمائه، أن يعتلي عرش سورية.

وطنٌ لا يحتمل القسمة..
وطنٌ يحمل القصة..

■ خولة دنيا - عدنان أحمد

ع / أ

"ركن الدين"
كصلواتِ محي الدين بن عربي
كتسابيح.. عجوزة بلغة أعجمية
كلون العروق...
كعطر الجذور
كاسم اللّه... يرددُ في القلوب

ركن الدين
كسورٍ من كتابٍ مقدس.
لم يعدُ يؤمن به أحد...
واسم نبيٍّ أصبح للحكمة تعاليمه تقال.. ؟!
" زرادشت " يا شهيداً أعلن أصل المكان
ترجم تسابيح العجوزة الى لغة البيان
واطلق من سفحها... الأصغرين
قسماً بالمكان والجذر العتيق
"هر بجي" آزادي
وترجم بالدم لأخوة التراب
أن "الوطن"
أمٌ لا تفرق بين التوأمين

خ / د

«مخيم اليرموك»
أيلولٌ أسودُ..
يا وجع اليوم والأمس
احتراقُ قلوبٍ تنزفُ كما ليلٍ طويلٍ يجافي
حقائب عودةٍ تقتات رصاص
حين النزوحُ يعلنُ سِفراً جديداً للأحجيات

مخيم اليرموك
ترهات مصلينَ للمقاومةِ
مقاومةٌ أخرى لملحمةٍ
تعلن بدايةَ البدايات
ابن غضبٍ... إخوة دم..
ضحكاتٍ يرسلها أصدقاءٌ لي
كنّا هناكَ قبل قليل
عرّش الغزو على مخيمنا
وبعين الشمس مازلنا
نكتبُ اسمها
بدمكم ودمنا
فلسطين...

EVERYTHING IS NOT LOST

■ جمال منصور

...

...

لمْ يضَعْ كلُ شيءٍ،

ليسَ بعدُ -

لم تتبخّرْ دمانا في الهواءِ الأصفرِ المريبِ،

ذاكَ الـ تطلقهُ لحى الشيوخِ الكثّةُ؛

لم يتعثر، بعدُ، صباحنا السابحُ

في مواويلِ "فيروزَ" الزرقاءِ،

وصيحاتِ سائقي الميكروباصاتِ، في زوايا المدينةِ؛

لم يسقط، بعدُ،

غدنا الأبيضُ، الـ في أحلامنا

- كلبنةِ أمي المدعبلةِ -

في حفرِ الطرقاتِ

إلى غدنا الأبيضِ الـ في أحلامنا؛

لم نمتْ، بعدُ،

فلم يزَلْ

بعضُ أنفاسِ الحياةِ في هذهِ الجثثِ المرهَقةِ

لم يزَلْ بعضٌ من جمرِ الأغاني

لم يزَلْ بعضٌ من رنينِ الصيحةِ الأولى

"لا!!"

لم يزَلْ

فينا نشيدُ النهرِ الـ كانَ

يهدرُ

أينما كنا،

كأنْ نحملهُ على أكتافنا / في صوتنا / في حقائبنا / في كلماتنا الرطبةِ الناعمةِ الملساءِ / في قهوتنا

لم يزَلْ

فينا نسغُ الإلهِ الحريري

أحمراً

كدمنا-النبيذِ

يسيرُ

ينطنطُ

ينسلُ

بين عروقِ المدينةِ اليابسةِ -

لا،

لم يضعْ كلُ شيءٍ؛

ليسَ بعدُ،

على كلِ حالْ...

[EVERYTHING IS NOT LOST]

السحابةُ بظهرها المحني

■ ياسر خنجر سجن تسلمون

أقيسُ المسافةَ بالفقدِ،
حينِ تؤجّلُ موعدنا
لثغةٌ في لسانِ القدرِ.

يُوشكُ القلبُ أن يتدارك َ
تعويذةَ الهاويةِ، كلما أومت إليهِ السحابةُ،
محنيةَ الظهرِ، كامرأةٍ متلفعةٍ بالكهولةِ
لا تكفُ توشوشُ قمحَ البراري
كنوزَ حكمتها، مموهةً بفرطِ أمومةٍ،
نضجت ولم تنجب من الحلمِ
إلا تهجئةَ الطريقِ،
فلذْ بالشكِّ يا قلبُ
تنزاحُ عن كاهلكَ الكآبةُ.
ما عاد خفقُكَ كافياً
ليصُدَّ سيفاً مُسلطاً عليكَ،
ويرممَ الصدعَ الذي بينَ خطاكَ وبينك.
فلذ بالشكِ تهتدي،
وتتوبُ عن غبشِ الطمأنينةِ
في دُلكةِ الهاويةِ.
ما عاد خفقُكَ كافياً
لتصرخَ في وجهِ الريحِ،
أن كُنتَ وحياً في طريقِ القافلةِ،
أو رشفةَ ماءٍ تبلُ الظمأ،
فأذن لخفقِكَ أن يبوحَ
بما وَهجتَ من قلقٍ،
تكن حرفاً بالغَ التكوينِ
في سطرِ النملِ الذاهبِ صوبَ الحلمِ،
الواثقِ أن صباحاً يوغلُ
في طِلَسِ تحرّرهِ من لعنةِ هذا الليلِ،
يَبرأُ من حدودِ المستحيلِ
وتفتنهُ احتمالاتُ الأفقِ.

* * *

يوشكُ القلبُ أن يتملّكَ
ناصيةَ النبضِ لولا ازدحامَ الضغائنِ،
مخبوءةً أو طافيةً
منسولةً من وحيٍ... موروثةً،
مغروسةً عمداً لتُقتالَ في روحكَ المغفرة.
لا تسعفُ التائه بوصلةٌ
إذا تعثر في الوعرِ قلبهُ،
وما من زيتَ في القنديلِ
يُضيء موضعَ القدمِ.
كل الجهاتِ رهنُ فراستكَ،
وواضحةٌ طريقُ الفجرِ، إن شئتَ
مخاصرةَ الهواجسِ في يقظةٍ
تُنبؤكَ ضفافَ البرزخِ.

* * *

خذلتكَ مئذنةٌ تُكبرُ باسمِ قاتلها،
فهل حقاً وثِقتَ بها
وأسلمتَ المشيئة !.
خذلتكَ أهواءُ العبيدِ فهل حقاً
وَثقتَ بمخلبِ العتم
يَفكُ خيوطَ حُلكتهِ،
ويأتيكَ بأفقِ ساطعِ الشمس !.
خذلتكَ مرآةٌ يُعلقها الغريبُ
على جدارِ البيتِ،
كي تتقمصَ الوجه الذي يختار،
فتنسى أن وجهَ الضدّيةِ وجهكَ،
عيناه عيناكَ، لولا أطفأت شمسهما
زفرةٌ من بندقيةٍ.
خذلتكَ الرصاصةُ، حيثما أطلقتها
لا تصيبُ غيركَ،
تملي عليكَ وصايا الدمِ،
ترثيكَ وأنتَ بَعدُ في اليفاعةِ،
فهل تحتار بين غمامةٍ
تذرفُ الماءَ فوقَ يباسكَ،
وعود ثقاب يستحلفُ اللهبَ أن ينبهكَ !.

* * *

يا قلبُ خذني في مهبِ فطنتكَ،
إلى صبحيَ المشتهى
حيثُ الضوءُ يسودُ، وأسئلةٌ
تُهيئُ للحلمِ أرضاً يعيثُ بها زرعاً.
حيثُ أجنحةُ الهواجسِ طليقةٌ،
ولا يتصيدُ القناصُ وجهتها.

يا قلبُ خذني في مهبِ فطنتكَ،
إلى صبحِ دمشقَ المشتهى.

2012-9-13

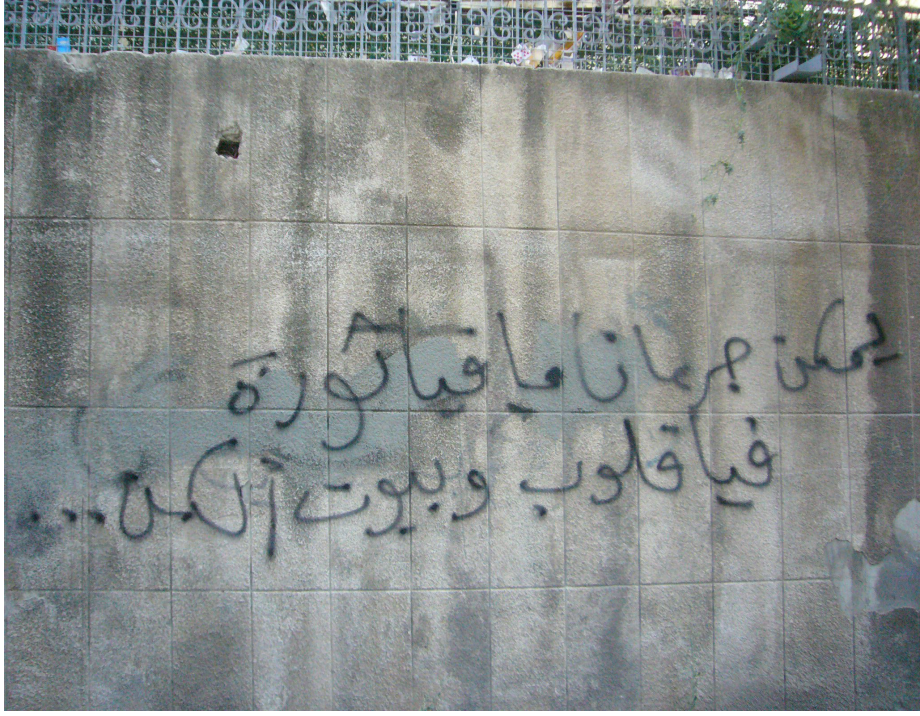

حزنٌ سوري (مقطوعات شعرية)

■ صهيب محمد خير يوسف

بابا عمرو

أناخَ الرَّكبُ فِينا ذاتَ فَجرٍ
وباتُوا يَسمعونَ نشيدَ حُرٍّ
وحينَ تنفَّسَ الإصباحُ سارُوا
ونادَى فارسٌ فوقَ المِكَرِّ:
ألا يَا حاديَ الغُرباءِ، خُذهمْ
إلى أبوابهم، فالشَّوقُ يَسري
فقالَ: أتطرقُ الأبوابَ كفِّي
وقَد عاهَدتُها في (بابِ عَمرو)؟!

عشق

بَيني وبينَ قاتِلي مَسافةٌ قَصيرَهْ
يَتبعُني مِنظارُهُ بدونِ أنْ أعيرَهْ
أيَّ انتِباهٍ واضح، أو نَظرةٍ كَسيرَهْ
بيني وبينَ قاتِلي رَصاصةٌ صَغيرَهْ
تعوَّدَتْ أن تكتُبَ النِّهايةَ الأثيرَهْ
وتَمنَعَ الهَواءَ مِن زَفرَتِهِ الأخيرَهْ
.. لا يَكتبُ الرَّصاصُ للإنسانِ أيَّ سيرَهْ
إلاَّ إذا استَنفدَ ما في العِشقِ مِن ذَخيرَهْ!

عن الحال

أيُّها السَّائلي عن الأوطانِ
وعنِ الحالِ، إذْ تَرَى أحزانَي
لا تسَلني عن سُوريَا، لا تَسَلني
لا تسَلني، ولا تُثِرْ أشجانَي
لا أرَى غيرَ أدمُعٍ ودِماءٍ
وأرى الخوفَ فاتِكاً بالأمانَي
وعلى حِمصَ يَسقطُ الدُّرُّ مَيْتاً
ليُنادَى عليهِ في دَوَرانِ
أيَّ لَيلٍ باتُوا بهِ، أيَّ رُعبٍ؟
أيَّ أمنٍ بِتنا بهِ وأمانِ؟

الحريق

تلكَ الفَتاةُ على الطَّريقْ
في شَعرِها اشتَعَلَ الحَريقْ
وتَفحَّمَتْ أطرافُها
واسوَدَّ خاتَمُها العَتيقْ
ذهبَتْ.. كما ذَهبَ اليَخُورُ
بها.. إلى أعلى رَفيقْ

القُرى

قُراكِ التي بارَكَ اللّهُ فيها
أمُرُّ بها حِينَ أتلُو السُّوَرْ
فتُشرِقُ في الرُّوحِ بُشرَى غَدٍ
يردِّدُها كُلُّ حُرٍّ أغَرّْ:
إذا طالَ فِينا بَقاءُ الظَّلامِ
فَللصُّبحِ مَوعدُهُ المُنتَظَرْ
سَتسقُطُ.. أوراقُهمْ في الخَريفِ
وتَبقى صِلاباً كَهذا الشَّجَرْ

تناص

للّهِ هذا الثَّائرُ العَندليبْ
لا يَعرِفُ اليَأسَ ولا يَستَريبْ
يُرتِّلُ القُرآنَ وَسْطَ اللَّهيبْ:
"نَصرٌ مِنَ اللّهِ وَفَتحٌ قَريبْ"
سُبحانَ مَن أَلطافُهُ لا تَغيبْ
عنّا، ومَن يَقولُ "أمَّن يُجيبْ"

حزنٌ سوري

يا إلهي وَخالِقي ومُجيري
وأنيسي في غُربَتي، ونَصيري
فرَّقَ النَّاسُ حُزنَهُمْ في قُراهُمْ
وأنا في مَجموعِ حُزنِيَ سُوري
في حَماةٍ وَقفتُ أدعُو رَحيماً
لِجَريحٍ مُحطَّمٍ مَبتُورِ
ولَدى حِمصَ جُئتُ أرجُو نَجاةً
لِصَغيرٍ يَمُوتُ بَعدَ صَغيرِ
وعلى كُلِّ قَطرةٍ مِن دِماءٍ
سألَتني الحَياةُ: أينَ ضَميري!
يا إلهي.. وحَالُنا ليسَ يَخفَى
عن سَميعٍ للعالَمينَ، بَصيرِ
فرِّجِ الكَربَ عن بِلادِيَ، وابْعَثْ
رَحمَةً مِنكَ بَينَ تلكَ القُبورِ.

الكيل بمكيالين

■ تامبي الشركس

عندما سمعت باسم كتيبة صدام حسين ككتيبة من كتائب الجيش الحر تبادرت فورا إلى ذهني أيام الغزو الأمريكي للعراق حيث تطوع مئات الشباب السوريين أو ربما آلاف للقتال ضد هذا الغزو، بينما هلل آلاف وربما مئات الألوف أو ملايين العراقيين لهذا الغزو الذي سيخلصهم من الطاغوت الذي جثم على صدورهم وحرمهم التنفس لعشرات السنين.

والآن ترفع المطالب في شتى أنحاء سورية لفرض حظر جوي أو إنشاء مناطق عازلة ومنها أيضاً تدعو للغزو الأجنبي المباشر ليساعد شعبنا في ثورته ضد طاغوته ونلعن كل من وقف بوجه هذا التدخل من الصين وروسيا وإيران وغيرها أيضاً ممن وقف مع النظام....

أتساءل الآن كيف لهؤلاء أن يساعدوا شعبنا عندما يرفض هو أن يساعد نفسه بنفسه. كيف لك أن تطلب من أي شخص عراقي عاش الويلات نتيجة نظام فاشي مثل نظامنا أن يقوم بمساعدتك وأنت تتغنى بجزاره؟؟؟

لقد جعلت الثورة منا أناس آخرين في الكثير من النواحي. لقد أيقظت في داخلنا حلما دفينا عاش فينا منذ أجيال وتحقق الآن فلماذا نقوم بوأده بأيدينا.... !!!؟؟؟

يرى الكثيرون في الغرب أن القاعدة هي من تقوم بالقتال الآن في سورية وهي فرصة الآن لتصفية أكبر عدد منهم دون أن يخوضوا الحرب بأنفسهم ويستنزفوا قواهم وعتادهم، والأهم أرواح مواطنيهم. وهم مرتاحون للوضع الحالي في سورية نتيجة هذا الفكر، فالآن "ينضرب عصفوران بحجر واحد" فهم يتخلصون من أكبر عدد ممكن من الوهابيين والمتشددين وأيضاً يضعفون نظاما أتعبهم وهو يعربد في المنطقة ليدخلوا بهدوء وبأقل الخسائر عندما يحين الوقت الملائم وبعدها سيتبجحون علينا بأنهم أسقطوا لنا ديكتاتوراً وأحضروا لنا الديمقراطية. وطبعاً دون أن يرف لهم جفن من المجازر المرتكبة بحق الأطفال والمواطنين الأبرياء فهم عبارة عن ثمن لا يدفعونه هم بل يدفعه شعب ما.

بعد أكثر من سنة وسبعة شهور دامية فقدنا فيها الكثير من الأعزاء ونحن يومياً نفقد أعز ما نملك ألا وهو وطننا، أما آن لنا أن نصحو ونستيقظ بعد أن بدأت ثورتنا بشكل أكثر من رائع. فلماذا نريد لنهايتها أن تكون شنيعة قبيحة، لماذا لا نجعل نهايتها أروع من بدايتها. وأنا هنا لا أقول هنا دعوا السلاح ولنعد للسلمية (مع العلم أني أفضل السلمية) لكن بعد أن وصلنا لخط اللاعودة في الثورة المسلحة لماذا لا تكون هذه الثورة رائعة مثل الثورة السلمية، لماذا لا تحمل على عاتقها رؤية كبيرة وواعية؟ فهي نواة جيشنا العظيم القادم الذي يجب أن نستعيد فيه أراضينا المحتلة السليبة وهو الذي سيعيد لسورية هيبتها وعظمتها وقوتها الحقيقية، وليس كجيش قتله النظام ببطء طوال 40 عاما وجعله أضحوكة بيننا.

اصحوا أيها القيادات رجاءً فتكرار الأغلاط الفردية لن يجعل منكم إلا نظاماً فاشلاً آخر مثل نظام البعث وكم كثرت هذه الأخطاء. فماذا جلب لنا حرق شاحنة مشروب كحولي على حدود تركيا أو تهديد سكان قرية بقتل أو بالأحرى "تشقيف" كل من يساعد سكان قرية أخرى مجاورة فقط لأن القرية المجاورة هي من طائفة أخرى (شيعية). إذا كان هذا ما تريدون أن يصل للعالم وأن يسمعوه فلن تسمعوا بالمقابل سوى وعود فارغة وعيون تراقب كيف تفنون بعضكم أنتم يا أبناء الوطن الواحد، وسوف تكون كل الدماء التي تراق يومياً من أبرياء ومدنيين في أعناقكم أنتم أيضاً كما هي في أعناق المجرمين من النظام.

اصحوا وأعيدوا لنا سورية بلدنا الرائع الذي لطالما أحببناه وعشقناه. ضعوا أيديكم في أيدينا ولنعد سوريين قبل كل شيء.

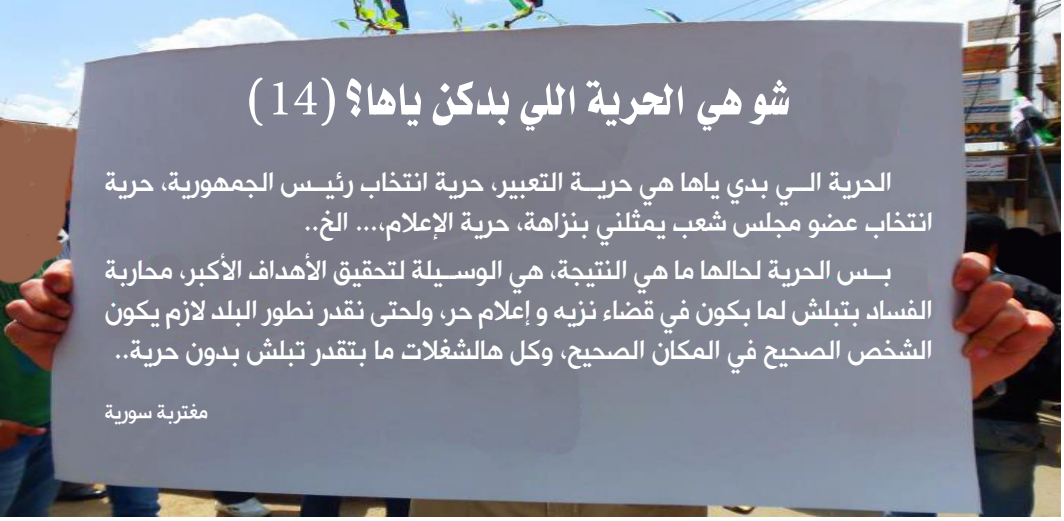

خولة دنيا

الحرية هي مطالبة بتغيير الوضع القائم المقيّد والأسر.. ولكنها لا تعني الانتقال للأفضل وخصوصا في البدايات... المطالبة بالحرية ودفع الثمن لها.. مجرد خطوة لامتلاك نقطة البدء والانطلاق من أجل التغيير المنشود.

فدوى روحانا

لو أن أسطورة نوح تعيد نفسها لو أن أحدا في السموات يرسل لأطفال سوريا مركبا تبحر بهم إلى أعالي البحار إلى أقاصي الدنيا إلى البعيد البعيد حتى تأتيهم أسراب الحمام بأغصان زيتون وورد...

عبود سعيد

أحياناً يخطر في بالي أن أنشئ حساباً فيسبوكياً خاصاً بأمي.. أتردد أخاف عليها من أن تتشوه روحها أو أن تتعلم التنظير والمثاليات، أقول: خليها هيك طليقة حرة، تقول ما تشاء من دون رقابة، من دون ما يجي حدا يصححلها الأخطاء الإملائية أو النحوية. خليها هيك مو عارفة الفرق ما بين الشيعي والشيوعي، وبلا ما تعرف انو في قلام حمرا حق الواحد 1000 ليرة.

ريما القاق

كل فترة بتدرج موضة ومن فترة دارجة انو بنكتب ستيتوس اقصائية "إلي بيحكي كزا رح إعملو بلوك أو احذفه أو امحي التعليق"... وأكيد رح يقول هي صفحتي وأنا حر فيها.. عال.. عشو عم تطالب بالحرية ليل نهار إزا رأي مختلف ما عندك قدرة تتقبلو أو تناقشو... ولا خلص حكم علينا بالقمع؟! لازم لحافظ على صداقتي معك ألتزم بقوانينك؟! يعني حرمتني من حقي بالتعبير والنقاش؟!. هي صفحة خاصة بس لما تكتب شي بتعرف انو كل الأصدقاء رح يقرؤوا وممكن حدا يعنيه الموضوع ومن حقو يعلق وهون لما تطرح فكرة أنت فعليا عم تطرحها عالآخر. وإلا فيك تكتبها بدفتر مذكراتك وخلصنا... أو ليكك ما بتنزعج من اللايكات وتعليقات المديح.. باختصار ما فيك تتحكم بردات فعل العالم.. أساسا" كسوريين كيف بدنا نجتمع بكل أطيافنا إزا مو عاجبك غير بلي ع طبطابك وعلى مدح بعض للصبح والمختلف كش برا؟؟؟

خالد حاج بكري

سأرفض أي طائف سوري.. يكفي أن المطالبين به صمتوا عن هضم حقوق الأكثرية طوال ثلاثة وأربعين سنة مُنّوهين أن الأسد حاباهم.. وأن هذه المحاباة يستحقونها.. يكفيني لأرفض أنهم اعتقدوا أنّ التفوق الذي وهبهم به الأسد كان تعويضا مرضيا عن طائف سوري.. وأنهم اليوم في العراء! وألا يديل عن طائف يقيهم غائلة البرد.. حسنا.. لا طائف سورياً.. وليمتع العراءُ برداً

فارس البحرة

أول ما يسقط النظام بدي سوّي أموري هون وأرجع لبلدي.. وما عاد أطلع منه.. اللهم غير سياحة إذا صدّلي..

مايا زريق

تعالوا نتفق.. أن نعشق الوطن ونؤمن بالثورة.. والباقي تفاصيل هزيلة.. مؤجلة.. !!

إيمان جانسيز

لم تكن المعادلة بالنسبة إلى إبراهيم صعبة... يمتلك كل ما يجعله شاباً عاشقاً... وسامة السوري.. إقامة في دولة خليجية وفرت له كل أسباب الرفاهية.. رفاهية تخدر الكثيرين.. وتنيبهم في العسل... ولأنه يمتلك عنفوان وكرامة الحر.. باع هاتفة ليشتري بندقية.. تماما كما في قصص غسان كنفاني.. وتخلى عن التسعة عشر ربيعاً.. ليختار أن يزهر في الربيع السوري.. لكنه ترك في الهاتف صورة أخيرة لصفحة: كلنا الشهيد إبراهيم...

آية الأتاسي

الأشخاص الرماديين يقتلونك بدم بارد... لا يتوقف هؤلاء عن سرد قصص الخطف والفدية والقتلة الأمنية... ولا يذكرون مرة واحدة ضحايا القصف والذبح... ولا يتذكرون جسد لرأس طفلة مقطوع ولا وجه بلا فم وفك لحمزة بكور!!!! رمادية... ربما من تبيض لوجه القاتل الأسود..

حسان عباس

وطنٌ يطفو على سطح ماء.. لا ثِقَل.. لا ظل.. لا ضفاف..

كبريت

مؤلم أن عدد شهداء الثورة وصل 33. 358، وبنقول عنا 33 ألف شهيد، وننسى الـ 358، لأنها كمالة عدد قابلة للتراكم كل يوم، لتصبح آلاف في نهاية الأسبوع!!

مرام المصري

علينا أن نحيا لنقول للتاريخ ما حصل لكي نحيي الموتى بعدم نسيانهم... لكي نصف الدمار.. كي نبني سوريتنا.. أحيانا أدافع عن ابتسامتي لأنني أريد أن أهديها لسوريتنا الجديدة..

مصطفى العساف

كلشي ثورة.. البندقية ثورة.. والشهيد ثورة.. والمعتقل ثورة.. والمظاهرة ثورة... والإغاثة ثورة.. والعمل ثورة.. والحب ثورة.. وقعدتنا بالبلد ثورة.... هيك قدرنا.. خليها ثورة على طول الأيام

كريم الأفنان

سيظهر جيل من أحفاد المجزرة "حاقد" على الطائرات!

راشد عيسى

كانت متعة أن تكتشف طريقاً جديداً مختصراً في دمشق، هذه الطرقات التي تجعل لكل منا "دمشقه" الخاصة. تتعرف أيضاً على سائق التاكسي الخبير والعريق بهذه الطريقة.. وتشعر أن المدينة التي عشت فيها كل عمرك ما زالت قيد الاكتشاف. الآن، دُمرت ممراتنا التي أمضينا عمراً في اكتشافها وامتلاكها.. إنها الحواجز، تدمير لطرقاتنا الأليفة، لذاكرتنا، جعلتها مدينة أخرى، من دون أي رغبة بالاكتشاف.

نوارة حسن

هناك بالقرب منهم، حيث بات وجودي مستحيلاً، قصص عن الموت يُسكت عنها متحولةً إلى مأتم، كقصصي وتفاصيلي مع البحر، ومع طفولة في ذلك المكان أصبحت ماضٍ وقتلها الموت... !!

عهد زرزور

سنة ونصف على الثورة وللأيّام طعم واحد، طعم اختناق ممزوج بأمل باهت، لم يتذوقه إلا من عاش كل يوم عيشة المنتظر بين أكوام من ثورات... نعم لن تعنينا شيئا هذه الأيام كعدد فيً لحظة ما، إذا ضحكنا بشدّة بانتصار كمعجزة، فستتلاشى وكأننا لم نلبث كل هذا الوقت في الدم والدمع والحرقة حدّ الشهادة، و لو أن لثورتنا مسبحة تسبّح بها لانفرطت من ثقل التسبيح والهتاف والعدّ، كل يوم كان رواية مثقلة بالحكايات، كل يوم مازال رواية، كل يوم سيبقى رواية، بكل التفاصيل الصغيرة الآن، المنسيّة غدا والتي تحفر بالقلب بعمق لا يشبه أي ذكرى تمرّ... ولن تزول..

هالة العبد الله

بغض النظر عن التفاصيل ولكن قلبي يدق بلهفة غريبة عندما أخبرني للتو صديق صحفي أنه دخل البلاد من معبر محرر وعلى جواز سفره الآن ختم الجيش الحر

زياد ماجد

من يسمّي كتيبة ثورية سوريّة باسم صدام حسين إنما يعبّر عن اعتراضه على "تأذّر" استخدام آل الأسد للسلاح الكيماوي ضد السوريين...

ميساء صالح

الطيور المهاجرة لن تمر هذا العام فوق سماء سوريا.. فالأرواح المتصاعدة كل دقيقة لا تجد فسحة كافية لها من الازدحام والطيران الذي يقصف الحقد والنار.. أغتصب الغيوم بعهر.. حتى سماء سوريا أصبحت سماء أشباح كمدنها..

أحمد حسن

جماعة أمريكا وجماعة إيران اخرسوا أو اطلعوا من بلدنا لعند اللي مستأجرين... بدنا نبني بلد ما بينباع ولا بينشرى.. بدنا دين لله مو للسعودية وإيران.. بدنا وطن لكل السوريين مو مزرعة لفلان وابن فلان... بدنا حرية مو فوضى.. وحب مو تبعية.. وعسكر لأمن الوطن مو لأمن أعداء الوطن....

مصطفى علوش

بين حيّ يعيشُ لعنة لا يستحقُّها حتى الشياطين.. وشهيد ينال قداسة لا يظفر بها حتى الملائكة.. يتوزع شعب كل ذنبه أنه أراد فقط أن يعيش حياة طبيعية كسائر البشر

مارسيل شحوارو

في الإنجيل السوري اليوم.. يُعتقل السامري الصالح من المخابرات الجوية بتهمة "مشفى ميداني".. ويعود الابن الضال إلى بيته، ليجد أباه قد نزح..

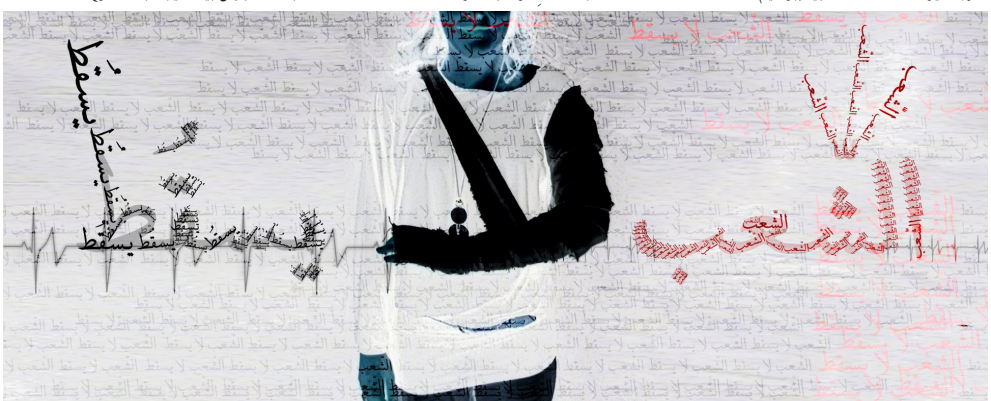

يا ابن أمّة رسول الله،
يا غاضباً لرسول الله -
معليش تتذكرلك، بفرنكين،
إنو:
«خذِ العفوَ،
وأْمُرْ بالعرفِ،
وأعرضْ عن الجاهلين؟؟؟»
[سورة الأعراف 199]
بعدين:
«فبما رحمةٍ من اللّهِ لنتَ لهم
ولو كنت فظّاً غليظَ القلبِ، لانفضّوا
من حولكَ؛
فاعْفُ عنهمْ،
واستغفِرْ لهمْ،
وشاورهمْ في الأمرِ؟؟؟»
[سورة آل عمران 159]
وأكيد، لازم تتذكر إنو:
«وعبادُ الرحمنِ،
الذين يمشونَ على الأرضِ هوْناً؛؛
وإذا خاطبهمُ الجاهلونَ،
قالوا (سلاماً)»
[سورة الفرقان 63]
هادا يللي عم نقولو، كلو،
مو اجتهاد من الرسول - لأ.
بل،
هو كلام رب الرسول وربك، إلو وإلك.
والمفروض، ع حد علمي،
إنو إنت
كلك طاعة لأمر الله.
ما إنت حبك للرسول، هو من حبك لـ الله،
مو هيك، ع أساس؟؟
ليك، عيني:
لكل شي فيه أسلوب، وطريقة.
حابب تكون مسلم صح؟؟
ليكو الإسلام،
دلك ع الطريقة يللي لازم تتعامل فيها.
بقا؛
هالهوبرة والزعبرة والغضب الطايش
بلا قيمة ولا طعمة،
من وين جايبو؟؟
ولوين رايح فيه، جنابك؟؟
وبمعيتك؛؛
بس تكرِن، وتروق، يعني
بلكي بتسألنا حالك،
إنو مين، بالله،
يللي عم يحركشك ليفززلك عصبك،
وقاعد عم يتفرج عليك، وعم يلم نقاط ع كتافك
- متل العادة؟؟ -
يا ريت تبلش تفكر.
صار وقتها، لإنو.
عرفت؟؟

جمال منصور

جسر دير الزور المعلق

■ بلال سلامة

تقع دير الزور شرقي سوريا على نهر الفرات في سهل خصيب محاط بالصحراء من جهاتها الأربع. على بعد 450 كم شمال شرق العاصمة دمشق و320 كم جنوب شرق حلب. وتعتبر محافظة دير الزور ثاني أكبر محافظة بعد محافظة حمص، وتبلغ المساحة الكلية للمحافظة حوالي 33 ألف كم مربع وتشغل 17. ٪9 من مساحة سوريا.

المكتشفات الأثرية في دير الزور تدل على أنها منطقة مأهولة بالسكان منذ الألف التاسع قبل الميلاد، وإن أقدم الأسماء التي منحت لها هي "شورا" وتعني بالسريانية الحظيرة، وسماها الأمويون "دير بصير"، ثم حملت المدينة اسم "دير حتليف" وهو اسم الدير الذي استقرّ به عبد الملك بن مروان حين حارب مصعب بن الزبير. ويذكر ياقوت الحموي أن اسم الدير في أيامه كان "دير الرمان" لانتشار الرمان فيه. وسماها العثمانيون "دير الرحبة" وأما اسم "دير الزور" فقد أطلق عليها عام 1864.

أغلب سكان دير الزور هم من القبائل العربية الرحّل التي استقرت في المدينة بين القرنين الثامن عشر والقرن العشرين. وإلى جانب هذه القبائل يعيش في الدير الأكراد الوافدون إلى المدينة من الجزيرة السورية شمالا، وكذلك الأرمن الذين نفوا إلى الدير قسرا بسبب المذابح الأرمنية.

بدأ عمران البلدة الجديدة منذ العام 1865، حيث كانت قد استقرت حامية عثمانية فيها بعد إخضاع عشائرها، وبنى المتصرف العثماني دارا للحكومة وثكنة عسكرية ومشفى، وباشر ببناء سوق الميري، واستقدم أناسا من أورفة من أصحاب المهن والبسْتنة للعمل فيها، واستقر معظم هؤلاء في البلدة. وفي العام 1887 تمّ بناء الأسواق التجارية التقليدية في الجهة الشرقية للدير العتيق، حيث شكّل بناؤها امتداداً عضوياً لعمارة المدينة القديمة، وبنيت الأسواق على أساس شطرنجي مسقوفة بقباب سريرية من الحجر والطين. وأخذت المدينة تتوسع بمحاذاة النهر، وبدأت معالم التكوين الحضري للمدينة بالوضوح. وفي العام 1893 تم إحداث حي الحميدية في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة، وفي العام 1900 أضيفت الحويقة (حي العثمانية) إلى أحياء المدينة.

نظرا لحيوية بلدية دير الزور وارتفاع دخلها كثيراً بالقياس إلى المدن الكبيرة (في العام 1910 بلغ دخلها 3000 ليرة ذهبية سنوياً، بينما لم يتجاوز دخل كل من بلديتي دمشق وحلب 11000 ليرة ذهبية سنوياً) بني في المدينة في أواخر العهد العثماني جسر خشبي يربط بين البادية الشامية والجزيرة.

تشتهر مدينة دير الزور اليوم كغيرها من مدن سوريا بالمعالم التي تميزها عن سواها، حيث تُعرَف هذه المدينة بجسرها المعلق الذي يعتبر تحفة هندسية معمارية وأحد أشهر الجسور المعلقة في العالم، وأصبح هذا الجسر رمزاً لمدينة دير الزور كما النواعير هي رمز لحماة، والجامع الأموي رمز لدمشق، والقلعة التاريخية رمز لحلب.

أطلق عليه بداية اسم "الجسر الجديد" وذلك للتفريق بينه وبين الجسور الأخرى القديمة التي بناها العثمانيون، وقد استخدم في بناء هذا الجسر الأسلوب الغربي في بناء الجسور المعلقة، ويعتبر ثاني جسر في العالم مبني بهذا الطراز بعد جسر في جنوب فرنسا، والأول في قارة آسيا، حيث قامت شركة فرنسية تدعى (الشركة الفرنسية للبناء والتعهدات) ببنائه سنة 1925 تحت إشراف المهندس الفرنسي (مسيو فيفو)، وأتمّ بناؤه في ست سنوات وتحديدا عام 1931 بطول 450 متراً وعرض ثلاثة أمتار وستين سنتيمترا، وعلى كل جانب رصيف بعرض أربعين سنتيمترا، و يستند الجسر على ست ركائز بيتونية (أربعة منها بارتفاع 19، 5 م وهي الركائز الوسطية، واثنان منها على الأطراف بارتفاع 4، 7 م) وترتفع الركائز لمسافة 36 مترا من القاع وحتى أعلى نقطة فيه.

عندما حان للفرنسيين أن يخرجوا من سوريا عمدوا إلى لغم الجسر بغية تفجيره وذلك بحجة عدم عبور القوات البريطانية عليه إلا أن واحدا من أبناء المدينة الأبطال وهو (محمد علي أبو محمود) قام بقطع الفتيل، فنجا الجسر من الدمار وتحول لمركز جذب سياحي، حيث يمكن للزائر أن يسير عليه ويستمتع باهتزازاته ويشاهد الفرات متصلا بالمدينة بشكل مميز وجميل.

كانت الغاية من إقامة هذا الجسر ربط ضفتي نهر الفرات ليستطيع المشاة والسيارات السير عليه بحيث ترتبط المناطق الداخلية بمنطقة الجزيرة السورية. وقد روعي في بنائه أن يكون له شكل جمالي ودقة هندسية كبيرة، وأن يتحمل وزن السيارات الثقيل، فوضعت فيه كميات كبيرة من الحديد المدعم والقوي، كما روعي في إنجازه عنصر الأمان فرغم اهتزازاته لا يؤثر هذا على عمليات سير السيارات والمشاة فوقه. وقد استخدمه الفرنسيون في نقل معداتهم من وإلى الجزيرة الفراتية في شرق سوريا.

وضع مخطط إنشاء الجسر في العشرينيات من القرن العشرين، ويقول الباحث جان الكسان "في عام 1925 قامت شركة فرنسية يتعهد بنائه على نهر الفرات في موقع مناسب بالمدينة يربط (المنطقة الشامية) وهي المنطقة الواقعة إلى يمين نهر الفرات بـ (منطقة الجزيرة) وهي المنطقة الواقعة إلى يساره. وقد أتمت هذه الشركة بناء الجسر في ست سنوات حيث أنهت بناءه في 23 نيسان عام 1931م، بطول 450 متراً وعرض ثلاثة أمتار وستين سنتيمتراً وعلى كل جانب رصيف بعرض أربعين سنتيمترا.

لقد بلغت تكاليف بناء الجسر ما يقارب المليون وثلاث مائة ألف ليرة سورية، ولا يخفى على أحد أن هذا يعتبر مبلغا ضخما في ثلاثينيات القرن الماضي.

تنتشر تحت الجسر المتنزهات الجميلة التي يسميها أهالي الدير تسمية محلية وهي (الجرايدي) وهي عبارة عن مطاعم ومقاصف سياحية يأتي إليها الناس يتمتعون بمختلف أنواع المأكولات والمشروبات، وتتوضع هذه الجرايدي على ضفاف الفرات في واحات خضراء جميلة.

يتحدث المسنون من أهالي المدينة عن طرائف عديدة حصلت عند بناء الجسر المعلق حيث لم يستخدمه الأهالي في البداية خوفاً من سقوطه، فكيف يسيرون عليه وهو يهتز تحت السيارات القليلة وحتى تحت أقدام المشاة والإبل وعربات الخيول وكأنه سيقع بمن عليه، وبسبب ذلك قاطعه الأهالي ولم يستخدموه. ومن أشهر هذه القصص يُروى أنه "عندما انتهى بناؤه ولأنه معلق خاف الناس من السير عليه ولكي يطمئنهم المهندس الذي صمم الجسر أعلن استعداده أن يجلس في زورق مع أسرته تحت الجسر مباشرة، وأن تسير عليه قافلة مؤلفة من عشرة سيارات. وهذا ما كان، حيث عبرت القافلة الجسر المعلق بسلام، وأصبح من تلك اللحظة ممراً للسيارات والمشاة واقتنع الناس بأن هذا الجسر قوي ولن يقع، وإلا كان من الأولى أن يقع على زورق المهندس وأسرته".

يذكر الباحث الكسان أنه بسبب ضيق الجسر كان لا بد من وجود موظفين على ضفتي الجسر يجريان اتصالا هاتفيا بينهما لتنظيم مرور السيارات فوقه بالدور، وذلك كي لا تلتقي سيارتان فوق الجسر فتضطر إحداهما للرجوع إلى الضفة التي أتت منها كي تمر الأخرى، وذلك على غرار قطارات سكة الحديد.

في عام 1947 أضيء الجسر المعلق بالكهرباء بأنوار ملونة في غاية الجمال تنعكس ليلاً على مياه النهر، وفي عام 1955 صبغ باللون الأخضر وأنير بشكل تزييني وأصبح منظره في الليل مميزاً وبديعاً ويشد السياح ليشاهدوا هذه الأنوار وهي تنعكس متلألئة على سطح مياه نهر الفرات.

حفاظاً على هذا الجسر قامت الجهات المعنية في محافظة دير الزور عام 1970 بإغلاق الجسر المعلق أمام دخول السيارات ليقتصر على المشاة فقط، وذلك عن طريق بناء أدراج عند مدخله الشمالي والجنوبي، الأمر الذي أدى إلى حدوث بعض الخلل في مكونات الجسر باعتبار أن تصميمه الهندسي يتوجب سير السيارات مع المشاة، وبناء على ذلك حظي الجسر المعلق بأعمال صيانة بعد نحو ست وسبعين عاماً من تشييده، كما وُجد أناس تخصصوا بإجراء الصيانة الدورية لهذا الجسر حيث يحتاج من هؤلاء إتقان في العمل ومهارة وشجاعة وجرأة في اعتلاء الجسر حتى أعلاه، حيث يقومون كل سنتين بإجراء صيانة كاملة للجسر المعلق من حيث إعادة طلائه بلون مائل للرمادي، وكذلك صيانة أجهزة الإنارة فيه، ويستمر العمل في صيانته مدة شهرين.

بعد إغلاق الجسر المعلق أمام السيارات والعربات قامت الجهات المختصة ببناء عشرة جسور أخرى غير معلقة وخصصت لسير الآليات والسيارات عليها. وهي جسور مصنوعة من الحديد والإسمنت خلافاً للجسور البسيطة المبنية قبل الستينيات والمصنوعة من الخشب. كما كان يتم اليوم عبور نهر الفرات في مدينة دير الزور بواسطة عبارات تسمى بالقطعة أو الشختور.

المقدس والأصنام: خواطر في الدين والفيلم المسيء

■ نبراس شحيد

في مديح "الأعداء"!

قدّم المتظاهرون الغاضبون إلى منتجي الفيلم المسيء خدمة عظيمة حين قلبوا الفيلم البائس حدثاً مهماً تتناوله وسائل الإعلام كلها، ويشاهده الناس في أصقاع العالم على الرغم من سخافته الشديدة! لكنّ الخدمة الأهم التي قدمها المحتجون إلى منتجي الفيلم هذا كانت، من دون شكّ، تعزيزُ أطروحتهم الخاطئة التي تربط الدين الاسلامي النبيل أوتوماتيكيا بالعنف. للأسف، كانت الطريقة التي استنكر بها المحتجون الاساءة إلى دينهم، بما تسبّبته من قتل وبغض وفوضى، طائشة إلى حدّ توطد معه الخوف من الاسلام عند البعض! إلّا أنّ الغضب الشعبي هذا لم يكتفِ بخدمة الفكر المسيء للإسلام الذي انتفض ضده، بل كان من حيث لا يدري أيضاً سنداً كبيراً للأنظمة الديكتاتورية العربية، لأنه عزز الأطروحة التي تسوقها الأنظمة هذه عن ضرورة الديكتاتوريات للوقوف في وجه الإسلاموية السياسية المتطرفة، وخصوصاً أن الاحتجاجات، أعنفها، كانت في بساتين "الربيع العربي".

في ثقافة "العدو المتخيل"

كل ما ذُكر أعلاه، وإن كان مهمّاً، سيظلّ ثانوياً أمام التناقض الكبير الذي كشفه انفجار الشارع الغاضب، عبّرت عنه بصدق إحدى اللافتات التي رفعها ثوار عمودا: "يومياً من سوريا تُعرض أفلام تسيء للّه وللرسول فأين أنتم يا مسلمون؟". تقوم الدنيا ولا تقعد ضد إساءة سينمائية رديئة للمقدسات، يقدمها فيلمٌ لا يُعرف أصله وفصله، في حين لا يحرك العالم ساكنا، أو يكاد، أمام ما يجري يومياً وواقعياً من إساءة للمقدسات في سوريا. "هل الرسول الذي يهان في سوريا هو نفسه الذي يهان في أميركا؟"، تتساءل لافتة أخرى بسخرية! تغصّ الشوارع بالغاضبين، مع أن الكثير منهم لم يشاهد الفيلم المسيء قبل التظاهر، في حين رأى ويرى الجميع كيف تُداس المقدسات يومياً، وتُهدم دور العبادة في سوريا، من دون أن يكون لهذا الواقع وقعٌ عملي جماعيٌ يذكر! التناقض فاضح، فـ"المقدس" هو ذاته هنا وهناك، والإساءة "هنا" تتجاوز آلاف المرات الإساءة "هناك"، لكن الغضب ينفث نيرانه "هناك" لا "هنا"! تعبّر الظاهرة هذه بدايةً عن طبيعة الجرح الذي تفتحُهُ الإساءة الى "المقدس" في وريد الشارع: جرحٌ غير مرتبط بحجم الإساءة بقدر ما هو مرتبط بهوية المسيء، وإلاّ لكانت الشوارع قد اكتظت منذ زمن بعيد بالمنتفضين ضد الإساءات للمقدسات في سوريا! مَا يؤجج مشاعر الغاضبين هو صورة مقدساتهم في عيني "الغرب" قبل حجم الإساءة وطبيعتها! هذا لمسناه بشكل جلي من خلال التعميم الساذج الذي اكتسح الشوارع الغاضبة ناسباً الفيلم، الذي أنتجته مجموعةٌ من الأشخاص، إلى "الغرب الكافر"، فحلّل قتل سفير لأنه ينتمي إلى بلد سيعرض فيه فيلمٌ مسيء (ليبيا)، وشرّع حرق السفارة الألمانية لأن الطريق إلى الأميركية عصيّة (السودان)! بكلماتٍ أخرى: ترتبط الإساءة قبل كل شيء، في منطق الشارع الغاضب، بالصورة التي يكوّنها الآخر الغربي عنه لا بواقعية الإساءة وموضوعيتها، ليتكشّف شيءٌ عميقٌ من عقدة النقص المستترة التي تستولي علينا.

في متاهات "المقدّس"

لكن، إذا كان أثر إساءة "المقدس" مرتبطاً أولاً بهوية المسيء وبصورته عنا لا بحجم الإساءة نفسها، فهذا يعبّر من جهة ثانية عن حقيقة الثقافة السائدة في الشارع الغاضب: إنها ثقافة تهتم بمنظور الآخر عنا أكثر من اهتمامها بما نعيشه هنا على مستوى الواقع! ما يثير غضبنا هو الإهانة التي نشعر بها شخصياً حين يمس الأجنبي رؤيتنا عن "المقدّس"، في الوقت الذي يبقى فيه "العدو الحقيقي"، من ينهش لحمنا في عقر دارنا، ويسرق خبزنا، ويدمر بيوتنا، وينتهك أعراضنا، ويدوس مقدساتنا بـ"بسطاره" الأسود، ثانوياً! لذا لا ينحصر التناقض المسيطر على ثقافة الشارع الغاضب في بعده الديني (الذي يدين إساءة "المقدّس" في أميركا ويتجاهل ما يجري في سوريا)، بل يرسم قبل كل شيء فصام الديني عن الإنساني وواقعيته، فما يثير الغضب هو الإساءة التي تطال "المقدّس" لا الظلم الذي يدوس كرامة الإنسان في سوريا الجريحة، وكأن لا علاقة لـ"المقدّس" بالإنسان! من المنظور هذا، تتحول اللافتة التي رُفعت في عمودا، معريّة حقيقة العدو المتخيل، لافتةً إشكالية، لأنها تختزل "المقدّس" في معناه الديني المباشر، وتطالب "المسلمين" بالتدخل نصرةً لدينهم لا نصرةً للإنسان المذبوح والمتألم بغض النظر عن دينه: "يومياً من سوريا تُعرض أفلام تسيء للّه وللرسول فأين أنتم يا مسلمون؟"! هكذا تبقى اللافتة هذه، وما شابهها من لافتاتٍ ومطالب وشعارات، ملتبسة، لأنها تهتم برؤية الآخر عن "المقدّس" قبل أن تهتم بواقع الإنسان. بمعنىً آخر: حتى لو ثار الشارع العربي نصرةً للمقدسات المستباحة في سوريا، فإن ذلك لن يغيّر شيئاً من جوهر المأساة، لأن الشارع لم يتحرك أولاً للدفاع عن الإنسان المظلوم!

لا تكتفي الثقافة السائدة في شوارعنا إذاً بمحاربة "عدو متخيل"، "هناك"، متجاهلةً ما يجري "هنا" في ربوعها، بل تتجلى قبل كل شيء ثقافةً منفصلةً عن كثافة الواقع ونسيجه الإنساني وأنينه المتألم. ما يميّز الواقع السوري هو ألمه، جسده المشظّى، صراخه، جوعه، عطشه، رغبته المتجسدة في الحرية، وهذا ما لا تستطيع الثقافة السائدة في الشارع الغاضب أن تأخذه في اعتباراتها لأنها تبقى سجينة مسارات عقدة النقص ورؤية الآخر عن مقدساتنا. هي ثقافة تهتم بـ"الهناك" على حساب "الهنا"، بـ"الأبد" على حساب الزمن، بدلاً من البحث عما يمكن أن يربطهما! باختصار هي نوع من غربة الإنسان عن عمق واقعه الإنساني، وعن آلامه وتطلعاته المتجسدة!

في سحر "الأصنام"

لا يكتفي شكل الغضب الذي خيم على شوارعنا بكشف الارتباط العضوي بين جرح الكرامة الدينية من جهة أولى وهوية المسيء ورؤيته عن "المقدّس" من جهة ثانية (قبل ارتباطه بحجم الإساءة نفسها أو بمعاناة الواقع والجسد)، بل يكشف أيضاً شيئاً كثيراً عن طبيعة العلاقة السائدة مع "المقدّس": إنها علاقة عصبية قبل أن تكون روحانية! الأمثلة كثيرة، ويكفينا أن نسترجع حوادث عشناها أو سمعنا عنها تشاجر فيها شخصان من دينين مختلفين، ليصطف أهل الحي (حتى لو كانوا غير ممارسين لشعائرهم الدينية) في معسكرين بحسب دين المتشاجرين لا بحسب القضية التي دار حولها الشجار. "المقدّس" الديني في الثقافة هذه هو مركبٌ من مركبات هوية الجماعة، ولذا يصير دفاع الشارع عن "المقدّس" دفاعاً في الوقت ذاته، وبشكل متناقض، عن المحتجين أنفسهم. التناقض هنا بيّنٌ، فالشارع الغاضب يعترف بقدرة "اللّه"، وفي الوقت عينه يدافع عنه وكأن "اللّه" يحتاج إلى محامين! هكذا، لا تكتفي ثقافة الشارع الغاضب بنسيان "الهنا"، وبتهميش الإنسان، من خلال التغريب الذي تغرقه فيه عن واقعه، بل نراها أيضاً تقلب "المقدّس"، من حيث لا تدري، "صنماً"! يصير "المقدّس" صنماً حين نُنَصّبُ ذواتنا مدافعين عنه، لنحامي في حقيقة الأمر عن أنفسنا وجراحنا، فنحمّل "المقدّس" ما نرغبه نحن ونشتهيه، ويتغرّب "المقدّس" عن جوهره ليصير "وثناً".

في المقام هذا، يصير "المقدّس" "صنماً" حين يتحول محضُ امتداد للجماعة ورغباتها في كمال صورتها أمام الآخرين. يصير "المقدّس" "صنماً" حين يُسجن في جمود فكرةٍ أو مصطلح أو جماعة. يصير "المقدّس" "صنماً" حين يتحوّل اسماً للموت لا اسماً مُحيياً، فنقتل ونخرّب باسم "اللّه"، أو ننظر بفوقية إلى "الآخرين" (والكلام موجه إلى الجميع، مسلمين ومسيحيين و...)، مدعين امتلاك الحقيقة، وكأن الحقيقة شيءٌ يمكن امتلاكه لا بحثاً دؤوباً مستمراً لا ينتهي! يصير "المقدّس" "صنماً" حين تصير "كرامته" منفصلة عن كرامة الإنسان وعن معاناته "هنا" و"الآن"، فيثور الشارع على فيلم مسيء وينسى واقع الإنسان السوري ومذلته اليومية. يصيّر "المقدّس" "صنماً" حين يُهمّش الإنسان، فينقلب الدين هرباً من كثافة الواقع والجسد! لذا سيبقى مشروع الربيع العربي ناقصاً إن لم يستطع أن يُخرج من رحمه فكراً دينياً جديداً يتجذر في نسيج الواقع الإنساني، لتصير الكرامة البشرية، في منطق "المؤمنين" أنفسهم، الأولوية الأولى لأنها من كرامة "المقدّس" ذاته!

نشر أيضاً في النهار 2012/9/22

شهداء سوريا

مجموع الشهداء (26660)

دمشق: 1630
ريف دمشق: 4570
حمص: 6437
حلب: 2673
حماه: 2437
اللاذقية: 503
طرطوس: 46
درعا: 2631
دير الزور: 1792
الحسكة: 138
القنيطرة: 70
الرقة: 124
ادلب: 3587
السويداء: 22

3058 عدد العسكريين
23602 عدد المدنيين
1619 عدد الإناث
751 عدد الأطفال الإناث
1775 عدد الأطفال الذكور

المصدر: مركز توثيق الانتهاكات في سوريا 22 / 9 / 2012
http://vdc-sy.or